أُمَيَّة الأندلسيّ

تأليف

أحمد شوقي بك

مطبعة دار الكتب المصرية

١٣٥١ هـ — ١٩٣٢ م

جميـــع الحقـــوق محفوظـــة

تمهيـــــد

---

(١) زمن الرواية : عصر ملوك الطوائف .

(٢) مكان الرواية : اشبيلية ، أغمات .

(٣) أشخاص الرواية :

المعتمد بن عباد ، ملك اشبيلية .

الرميكية ، الملكة .

العبادية ، أم المعتمد .

بثينة ، بنته .

القاضى ابن أدهم ، قاضى القضاة .

الأمير حريز ، من أبطال الأندلس .

الأمير بولس ، شقيق ملك الأسبان .

أبو الحسن ، تاجر باشبيلية .

حسون ، ابنه .

ابن حيون ، من الأدباء .

أبو القـاسم ، من الأدباء .

مقـــلاص ، مضحك الملك .

لـــؤلـــؤ
جـــوهر ، من حجـاب الملك .

ابن شاليب ، رسول ملك الأسبان .

الباذ بن الأشهب ، لص شـــهير .

أمـــراء

جنـــد

الخ ...

رواية أميرة الأندلس

مقدمة

جرت حوادثُ هذه القصــة فى زمنٍ كان قطعة من ليل الملمات . أخذت الأندلسَ فى جنحها الحالك ثم تركته نظْما منحلا وركنا مضمحِلا ، وشمسا من دول الإســلام سقُمت فألح عليهـا السقْم فاحتضرت ، فكانت لهـا فى الغـرب هِـدّة وكانت عليهـا فى الشرق صَجـة . وخلال تلك القطعة من ليل الملمات كان الأندلُس تحت ملوك الطوائف ، وكان هؤلاء الملوكُ على شرف بيوتهم وتمـيز شخصياتهم ونبوغهم فى كل علم وأدب أصحابَ بذخ وترف وأخدانَ صبْوة وخلاعة ، لاحظ لهم من همة الملك ولا نصيب

من مراشـد السلطان . و إنك لتعجب من آنغماسهـم فى اللذات ونسيانهم لذكرِ العواقب ، وهم أتعبُ خلقِ الله وأكثرُ الملوك ركوبا للغرَر، واستهدافا للخطر، ومشيا على الحبائل والحفر، فأما فى داخل دويْلاتهـم فكيد وائتمـار ، وفتنة نومها غِرار، وسيفها فى الغِمد قليـل القرار، حتى لا تكاد الشمس تطلع إلا على مللٍ مخلوع ولا تغـرب إلا على ملكٍ مقتول؛ وأما فى الخارج فكنتَ ترى هؤلاء الملوكَ بين نارين تتواعدان، و بين سـيلين يتهدران : فملك الأسبان الفونس يتجنّى و يعتدى، و يضرب الجزية و يفرض الإتاوات، ويبعث لأخذ الأموال جباةً أهل غِلْظة وقِحَة، وصاحبُ مُرّاكش يوسـفُ بن تاشفين هو وقوّاده ووزراؤه مشـغوفون بالأندلس يمطرونه الرسـل والرسائل إلى قضاتهِ وفقهائه، مهيئين بذلك لفتح بنوْا عليه الرجاء وعلقوا به الآمال . وكان ملوكُ الطوائف يخافون جارهم هـذا المسـلّحَ المتوثبَ سلطانَ المغـرب و يرجونه

فكان تملقهم له لا ينقطع ، وكانت الأموال تحمل إليــه فى صورة المعونة ، وكانت الرِّشى تقــدّم لوزرائه ورؤساء دولتــه فى صورة الهدايا والألطاف ؛ وكل هذا المــال إنمــا كان يجمع من المكوس والمغارم ! فتخيّل كيف كان بؤس الرعيــة ، وتأمل كيف تذهب معالم البلاد بين عبثِ الفرد وغفلة الجماعة ... ولقد كان على قرطبة وهى حاضرة الملك أن تحمِل شطر هــذا البلاء فلم تلبثْ أن انحطت عن ذلك المكان العالى الذى كانت فيه دار الخلافة ومطلع القصرين الدمشــق[1] والرصافة فصــارت كرسىّ إقليم وقاعدةَ دويْلة وعرشَ ملك صغير يؤدّى الجزية ولا يُحِس لها ذِلة ولا هوانا .

(١) قصور الخلفاء الأول من بنى أمية فى قرطبة .

الفصل الأول

المنظر الاول

« مقصورة من مقاصير البديع "قصر المعتمد بن عباد" فى إشبيلية »
« وإلى يمينها مصلى وفى مؤخرها ستار كبير يحجب • وقد وقف على »
« بابها جوهر حاجب بن عباد ولؤلؤ ساقيه ومقلاص مضحكه »

جوهر [إلى لؤلؤ] : كيف وجدتَ وجه الملِك اليومَ يالؤلؤ ؟

لـؤلـؤ : كسنّيّه، يفيض من البَشاشةِ والبِشْر .

جـوهر : بل أنت واهم يالؤلؤ ! إن وجه الملك تغير فى هذه الأيام
وبدا عليه التغضن وأثّرت فيه الهمومُ أثرَها الظاهرَ المبين.

مقلاص : كان الله عونَ الملِك، إنه ليحمل من همومِ الملْك وأكدارِ
السياسةِ ماتنوء به الجبال، لعن الله السياسة وقبّح الولِاية،
ولا جعل لى من أشغالها نصيبا .

جوهر [يضرب بيده على حدبة مقلاص] : وأىّ نصـيبٍ كنت تؤمِّل من أمور الدولة يا مقلاص حتى سألتَ الله أن يحرمك منه ؟

مقلاص [ملتفتا] : دعنى من هذيانك يا جوهر وانظر : هذه الأميرةُ أقبلتْ كأنها البدرُ فى الليـلةِ الظلماء أو كأنها الظبيُ يتخطّر على الحصباء .

[تدخل الأميرة بثينة]

بثينـــة : يا بشرايَ ما هذا الحظُّ العظيم ، أصدقائى الثلاثةُ ههنا ، يجمعهـم باب الملك : جوهر حاجب الملك ، ولؤلؤ ساقى الملك ، ومقلاص .

مقلاص [مقاطعا] : مقلاص المهرجُ الساقِطُ والمضحِكُ الوضيع .

الأميرة [بثينة] : لا تقـلْ هـذا يا مقلاص ! ولكن قل نديمُ الملك ، وصديقُ ابنته بثينة .

مقلاص : أنا مقلاص المهرجُ صـديقُكِ أنتِ يا أميرة إشبيلية ، بل يا ملكة الأندلس ، بل يا شريكة الشمس فى عرش الوجود ؟ !

الأمـيرة : أعرفتَ الآن مكانك ؟

مقلاص : عرفته يا سيدتى وإنى به لمزهوٌّ فخور .

الأمـيرة : إذا فاعلم أيضـا أن هـذا الحاجب جوهر قد يأذن على الملكِ لرجالٍ يكره لقاءهم ويغُمّه رؤيتُهم وسماعُهم .

مقلاص : أمّا أنا يا سيدتى فما وقفتُ على باب الملكِ مرة إلا حجبتَ عنه الفِكْر والغمّ .

الأمـيرة : وهذا الساقى يا مقلاص .

مقلاص : هـذا السـاقى يا مولاتى يقبض كل يومٍ من دِماغ الملك شعاعا ، ولولا أنّ دِماغه الشريف كالشمس التى لا تنفَدُ أشِعّتُها لكان اليوم جُمْجُمةٌ لا عقل فيها كأكثرِ هذه الرءوسِ التى نراها فى الطرقات .

الأمـيرة : وأما أنتَ يا مقلاص فتسـقِى الملك كلَّ ساعةٍ من رحيقِ مَنْزِلك ودُعابتِك ما يملؤه غِبْطة وعافية وسرورا .

جوهر [مقاطعا — متدخلا] : لقد إستأثرتَ يا نديم الملِكِ و يا صديقَ الأميرةِ .

مقلاص [مغضبا] : بالرغمِ من أنفِك !

جـوهر : لقـد آستأثرتَ يا مقلاصُ بحـديثِ الأميرةِ فتنحّ ساعةً واترك لنا فَضْلة من الشهد .

جوهر [للأميرة] : مولاتى ، سـيدتى ، بئينة أيةَ وحشـةٍ خلّفتِ فى القصرِ يا مولاتى .

الأمـيرة : أوأبدًا تبالغ ؟

جـوهر : كلا يا مولاتى ! هى كلمةٌ طافتْ بالقصرِ منـذ افتقدناكِ هذا الدهرَ الطويل .

الأمـيرة : أتعُـدُّ الثلاثةَ الأيام دهرًا يا جوهر ؟ ألم أقل لك إنك تبالغ كثيرا ، لِمَ لمْ تسألنى يا جوهر أين كنت ؟

جـوهر : أعلم أنكِ كنتِ فى قرطبةَ يا مولاتى .

الأميرة [وتبتسم ابتسامة سخر] : أجل كنتُ فى مُلكنا الجديد يا جوهر .

جـوهر : وكيف وجدتِه ؟

الأمـيرة : العنوانُ قبّة ، والكِتاب حَبّة .

جـوهر : أرجو ألا يكون غرامُ الأميرةِ بأشـبيليةَ وطنِها الغالى ومهدِها العزيزِ قد أنساها ذِكر الفضلِ لقرطبةَ دارةِ الملكِ الأولى ومهدِ الفتحِ والعمران و ... .

الأمـيرة : أجل . وسماءِ الرعودِ والعواصفِ وَوَكْرِ الفِتنِ والقلاقلِ... آهِ من قرطبة وبُغضائِها يا جوهر ، وويلى على أخى الظافر من هذه الولايةِ الحمراءِ التى لم يقلّدها أميرٌ الا قتِل أو عزِل... عرشَ يضطرب تحت كلِّ جالس ، وتاجٌ لا يستقِر على رأسِ كلِّ لابس .

مقلاص : مولاتى !

الأمـيرة : مقلاص . أشبيليةُ وأبى وأنت كانتْ ذكراكُم ملءَ خاطرى فى قرطبةَ ، هل من دُعابةٍ جديدةٍ يامقلاص تُنسينِى ماقِيتُ من الغم والكدر على تلك العاصمةِ الثانيةِ لملكنا السعيد .

مقلاص : لا تقولى هـذا يامولاتِى فيَغضبَ القرطُبيون ؛ إنهـم لا يُقدِّمون على مدينتِهم حاضرةً من حواضرِ الدنيا ولو كانت دمشقَ أو بغدادَ فكيف يرضون أن تكون الثانيةَ لأشبيلية وما مدينتنا فى زعمِهم الا بلدُ الخلاعةِ والمُجون .

الأميرة [ضاحكة] : وأين قرطبةُ منا الآن، وأين القرطبيون يامقلاص وبيننا وبينهم سَفَرٌ شاقّ طويل؟ تُرى من علّمك كلَّ هذا الحرص ومن أين لك كل هذا الدهاء !

مقلاص : هى الأيامُ يا أميرتى . هى الأيام . وهذا السيفُ ماذا ... كنتِ تصنعين به يا مولاتى ؟

الأميرة : كنتُ أتقى بهِ عوادى الفُجاءات .

مقلاص : وهذا اللثام ؟

لأميرة : كنت أذود به عنى العيونَ والظنونَ فى بلدٍ ضيقِ الصدْرِ مُبلّدِ العقلِ ؛ شتان بينه وبين أشبيلية ذاتِ العقلِ الواسع والصدرِ الرحيب .

الأميرة [لجوهر] : لقد نسيتُ يا جوهر ذكر واجبٍ كان علىّ أن أُقدّمه قبلَ كل شىء .

جـوهر : وما ذاك يا سيدتى ؟

الأمـيرة : السؤالُ عن الملِك .

جـوهر : هو يا مولاتى بخير . أبدًا يسألُ عنكِ .

الأمـيرة : وأين هو الآن ؟

جـوهر : هو فى الصلاة يا سيدتى .

الأميرة [تطرق فى تأثر ثم تقول] : يا ويحَ أبى لقد نظرت اليه وهو فى قصيرِ السودانِ الضيق الصغير بقرطبةَ فوجدتُه كئيبا متململا كأنَّ تلك السقوفَ المنخفِضَةَ لم تكن تليق برأسِه العالى وكأن تلك الحجـراتِ الضيقة لم تُصنع لعينِه الساميـة الطّامحة . وكأنمـا كان يَرى الزهراء أولى بأن تُقِلّه . وأجدرَ بأن تُظِلّه . وهنـاك دنوتُ حتى صرتُ خلفـه بحيث أسمعه ولا يرانى . فسمعته يقول وكان وحده فى الحجرةِ مطلا من

نافذةٍ يلقِى نظرَه على قُرطبةَ .

جوهر [باهتمام] : وماذا كان يقول يا مولاتى ؟

الأميرة : كان يقول : قرطبة ... مُلْك جديد أُضيفَ الى ملكِ أشبيلية ، ما أصغر المضاف والمضاف اليه . أنظر ابنَ عباد الى العرشِ كيف صغر ، والى الصولجان كيف قَصُر ، والى الملْكِ كيف اختُصِر ، وتأمل مكان الحكمَ فى قرطبة كيف سُدّ اليوم بالمعتمِد ، ومجلسَ الناصرِ كيف شُغِل بابن عباد .

جوهر : نحن بانتظار القاضى بنِ أدهم يا مولاتى .

مقلاص [متداخلا] : لعله هذه الكرنبة التى تتدحرج من بعيدٍ منحدِرَةً الينا ،

الأميرة [مستضحكة لجوهر] : استقبل أنتَ يا جوهر القاضى وأدخِلْه على أبى فان قضاة الأندلسِ لا يستأذن لهم على ملوكه .

الأميرة [ثم لمقلاص] : وأنت يا مقلاص . أعرفتَ أنى وجدتُه .

مقلاص : وما ذاك يا مولاتى ومن هو ؟

الأميرة : أنسِيت يا مقلاص حين تقولُ لأبى بِمَسْمع منى إن الزوجَ الكفءَ لبثينة لم يُخلق بعد لا فى الأندلس ولا فى غيره .

مقلاص : لا لم أنس يا مولاتى . قلتُ هذا ولا أزال أعِيدُه .

الأمــيرة : إذا فاعلم أن الزوجَ الذى يَصلح لى قد خُلِق .

مقلاص : ومن ذاك ؟ ما آسمه وأين هو الآن ؟

الأمــيرة : كل هذا تعلمه بعد حينٍ يا مقلاص . تعالَ معى الآن ، اتبعْنِي ودعْ جوهر ولؤلؤ يستقبلان القاضى الجليل ...

الأميرة [الى جوهر] : فى حفظ الله يا جوهر .

الأميرة [الى لؤلؤ] : فى حفظه يا لؤلؤ .

جوهر ولؤلؤا معا : فى ذمة اللهِ وكلاءَتِه يا مولاتى .

الأمــيرة : لا تَنسيا أن تذكرانى عند الملك وأنى رهنُ إشارتِه .

[تخرج الأميرة مع مقلاص] .

جــوهر : أشكر الله أن أخّر مجيءَ القاضِى .

لــؤلــؤ : كذلك كنتُ أحدّث نفسى وأخشى على مولاتى فى زيهــا هذا من عين الشيخ ولسانه .

[يظهــر الملك] .

المـــلك : هل جاء القاضى ابنُ أدهم يا جوهر ؟

جـوهر : أجل يا مولاى رأيتُه فى ساحةِ القصرِ .

لـؤلـؤ : وقد عادت الأميرةُ من قرطبةَ يا مولاى .

المـــلك : أوعادت الآن ؟

لـؤلـؤ : أجل يا مولاى .

المـــلك : أهى بخير ؟

لـؤلـؤ : بأتم عافيةٍ يا مولاى .

المـــلك : إذا انتهى ابن أدهم من زيارتهِ فأتِ بها إلىّ .

لـؤلـؤ : أمرُك يا مولاى .

[يخرج لؤلؤ] .

المـــلك : وعليـك يا جوهر أن تَستقبِل ابنَ أدهم وتأتينى فى أوفرِ بشاشةٍ وتعظيم .

[يخرج جوهر ثم يرجع يتقدّم القاضى]

[ابن أدهم وينادى من باب الحجرة]

جوهر [مناديا من الباب] : القاضى ابنُ أدهم .

القاضى : السلام على الملك ورحمة اللهِ و بركاته .

المـــلك : وعليكم السلامُ أيها القاضى ومقدِم الخير ، فقد علمتُ أنك كنتَ نزيل المغربِ فى الأيامِ الأخيرةِ وكنتَ به ضيفا على أمير المسلمين يوسفِ بن تاشفين .

القاضى : هو ذاك يا مولاى .

المـــلك : فكيف الحوادثُ والأحوالُ هناك ؟

القاضى : عنـدى من ذلك الشىءُ الكثير وسأذكره فى مجلسٍ تالٍ يأمر به الملك ولا أذكر الآن إلا رسالة حملَنيها الأمير سِيرى بن أبى بكر .

المـــلك : وما هى أيها القاضى ؟

القاضى : أو يعرف الملكُ الأميرَ سِيرى ؟

المـــلك : كيف لا أعرفه ! هو كافلُ الدولةِ المغربيـةِ وكبيرُ وزراء السلطان وقائدُ جيوشـهِ الأكبر . وما يبتغِى منى الأميرُ أيها القاضى ؟

القـاضى : إنه يخطب إليك الأميرةَ بثينة .

المـــلك : ألشخصه يخطبها أم لواحدٍ من أولاده فهـم فيما أعلم كُثْر وأصغرهم فيما أذكر يوافق ميلادُه ميلادَ بثينة .

القـاضى : بل يخطبُها لنفسه أيها الملك .

المـــلك : إن هذا عجيبٌ أيها القاضى ... ... وما كان جوابُك ؟

القـاضى : قلتُ له إن الملكَ ابنَ عباد يذهب ببنته بثينة كلّ مذهبٍ ولا أظنّ قلبَـه يطاوعه على تزويجها فى الغُربةِ وإخراجِها الى بلادٍ بعيدة .

المـــلك : أحسنتَ أيها القاضى . فما هذا زواج ... إن هذا إلا قبرٌ أخطُّهُ بيدى لبثينة . على أننى مُحضِر إليـك بثينةَ لتحدّثها وتسمعَ منها .

الملك [الى جوهر] : جوهر . جئنا بالأميرة يا جوهر .

[يختفى جوهر لحظة ثم يعود بالأميرة]

الأمـيرة : أبى !

المـــلك : بنيتى !

الأمـيرة : أطلبتَنِي يا أبى ؟

المـــلك : تعالىْ بثينةُ حيّ عمكِ القاضى ابنَ أدهم .

الأمـيرة : السلام عليك يا مولانا القاضى ورحمة اللهِ وبركاته .

القـاضى : وعليكِ السلام يا بنتَ أكرمِ الملوك . تعالىْ خذى مجلسكِ بين أبيكِ وعمك .

المـــلك : مع من عدتِ من قرطبة ؟

الأمـيرة : مع لِثامِي وجوادى .

المـــلك : وكيف وجدتِ قرطبة ؟

الأمـيرة : وجدتُ طرقاتِها تموج بالفقهاءِ يعرفهم الناظر بزيِّهم فذكرتُ عندئذٍ شُهرة هذا البلدِ بالفتنةِ والتشغيبِ وجرأة أهلهِ على أمرائِهم وحكامهم وأشفقتُ منه على أخى الظافر ، وإن كنتُ واثقةً بحزمهِ وعزْمهِ .

القـاضى : ومن أنباكِ أيتها الأميرةَ أن الفِتْنة والشَّغَب يجيئانِ من ناحيةِ الفقهاء ؟

الأميرة : لم يبق سِرًّا يا سيدى القاضى أن الفقهاء يُعلّقون سَعادةَ الأندلسِ وخلاصَه بالقائه فى أحضان جيرانِه سلاطين المغرب .

القاضى : وأنتِ يا بنتَ ملوكِ المسلمين ، أما تجدين ما يطلبُه الفقهاءُ فى قرطبةَ أجدى على الأندلسِ من بقائِه على الحالِ التى هو فيها مُشرِفا على التَّلَفِ والضياع ؟

الأميرة : لا يا سيدى القاضى ليس فى الحق أن يغتصِبَ جماعة من المسلمين أوطانَ جماعةٍ غيرِهم من المسلمين فان الوطنَ هو كالبيتِ فى قداسته وكالضيعةِ فى حرمتِها .

الملك [متدخلا فى الحديث] : لقد بعثتُ يا بثينة فى طلبِكِ لغير هذا الشأن وفى أمرٍ ذى بال وإنى أترك للقاضى التحدّثَ معكِ فيه .

الأميرة [ملتفتة الى القاضى] :

تكلمْ ياعمُّ فكلى إصغاء ؟

القاضى : لقد خطبكِ الى أبيك رجل من عظماء الإسلام فى هذا

الوقت هو الأمير سيرى بن أبى بكر وزير الدولة المغربية .

الأميرة : أفارغ هو أم مشغول يا سيدى القاضى ؟

القاضى [فى حيرة] : بل له من الأزواج ثلاثٌ وستكونين الرابعةَ وستكونين المدلّلة المهذّبةَ من بين أزواجه .

الأميرة [فى غضب] : إنك يا سيدى القاضى تدعونى الى خُطبةٍ لا أنا مضطرة فأحمل النفس الكارهة على قبولها ولا الأمير ابنُ أبى بكر معطل البيتِ من الربةِ الصالحةِ فيتشبثَ بها ويُصر عليها ، بل تلك خطة لم أجد أبوىَّ عليها ولم آلف رؤية مثلِها فى حياةِ أسرتى : فهذا أبى جعلنى الله فداءه لم يتخذ على أمى ضرّة ولم يكسر قلبها بالشريكةِ فى قلبه فجاءت بنا أولاد أعيان ، نجتمع فى جناحِ الأبوّة ولا نفترق فى عاطفةِ الأمومة ، ولو شاء أبى لكان له كنظرائه الملوكِ والأمراءِ نساءٌ كثير ولكان له منهن بنو العلات تحسبهم إخوة وهم أنصاف إخوةٍ من كل دَجاجةٍ بيضة ومن كل شاةٍ حمل .

القاضى [متلطفا] : شهد الله لقد أحسنتِ يا ابنتِى . ولكن مصلحةُ الملكِ أنسيتِها ونصرةُ الوالد أغفلتِ عنها . وسلامةُ الأندلسِ أأهملتِ شأنها ؟

الأميرة : لا يا سيدى القاضى كلُّ ذلك فى المحل الأولِ من نفسى واهتمامى ولكننا مختلفان فى النظر فأنت ترى أن الأندلس لا ينهض من كبوتهِ إلا اذا مدّ السلطان اليه يده وأنا أتخيلها يدَ الذئب يمدّها الى الحمَل ، وأنتَ يا سيدى القاضى قد أخذك اليأس فى أمر الأندلسِ وأنا كلى رجاء ولا أستبعد أن تتهيأ لأبى ، وهو كهف الأندلسِ وملاذه ، الفرصةَ لجمْعِ الكلمةِ وضربِ الأفرنج ضربة تُريح العربَ منهم السنين الطِوال وأنتَ تعلم أن تاريخ الأندلس مفعَم بالفجاءات السعيدةِ من هذا الطِراز .

القاضى : يُريد الله بكم اليسرَ ولا يُريد بكم العسرَ ، ولقد رددتُ عنكِ أيتها الأميرة وعن أبيكِ الملكِ وأحسب أنى أحسنتُ الردّ .

المـــلك : كل الإحسان أيها القاضى .

القـاضى : الآن لم يبق إلا أن أنصرف .

المـــلك : مشيّعا بحفظِ الله و رعايته .

[ينصرف القاضى و يشيعه الملك]

الملك [للقاضى] : كيف تجدُ بثينة يا ابنَ أدهم ؟

القـاضى : بورِك لك فيها وبورِك للأندلسِ فى عقيلته ! إنى أجدُها روحَ الوالدِ وأرى عليها طبعةَ الزمنِ وحضارةَ الجيل .

[يعود الملك ومعه مقلاص بعد أن يودع القاضى]

المـــلك : أعلمتَ يا مقلاص؟ أسمعتَ أن سيرِى ابن أبى بكر يخطبُ الىَّ بثينة ؟

مقلاص [ملتفتا الى بثينة بصوت خافت] : أهذا الذى وجدتِه ياسـيدتى ؟ إنى لا أهنيكِ بتيْس المغرب .

الأمـيرة : لا يا مقلاص إن الذى وجدتُهُ هو غزال الأندلس لا تيْس المغـــرب .

المـــلك : خبريني يابثينة ماذا وجدتِ في قرطبة .

الأمـيرة : حال من القَزارة تنتزه عن مثله أشبيلية .

المـــلك : هذا من توالى الفتنة والاضطرابِ على الناسِ حتى شُـغلوا عن تنظيفِ مدينتِهم التى كانتِ المِثالَ المحتـذى بين المدن نظافة ونظاما ... ثم ماذا ؟

الأمـيرة : راعتنى قصورُها المهجورةُ الموحشةُ كأنها الأطلال .

المـــلك : هـذا من انقراضِ الوارثين أو ضيقِ نعمتِهـم عن سكنى الدورِ الواسعة وصِغرِ أقدارهم عن نزولِ المنازِلِ الرفيعة .

[يظهر على بثينة التأثر والاغتمام] .

المـــلك : ماذا غمّكِ يا بثينةُ ؟

الأمـيرة : تذكرتُ يا أبى قصورَنا بفزعت ، قلتُ : الزاهى ترى ما نصيبه ، والتـاجُ ما ذا غدا يصيبه ، والبـديعُ ما يكون مصيره ، والمؤنس هل توحش مقاصيره ؟

المـــلك : بنيتى خلى عنكِ هـذه الهواجسَ ، ولا تحملى على الشـبابِ

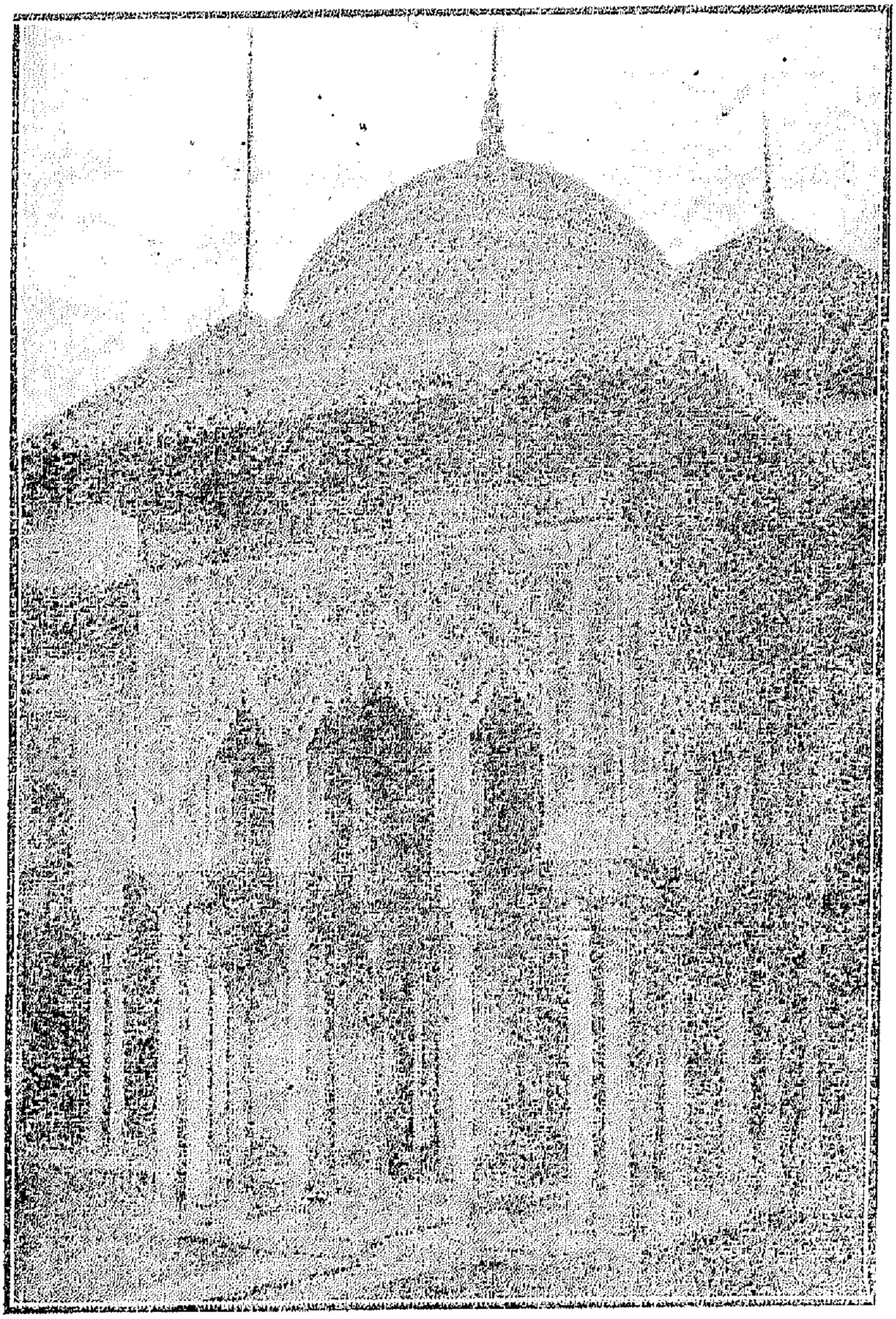

قصـــر من قصـــور الأندلس

العُبوس والهمّ فانه لم يخلق لها . إصرفى الشبابَ الى الضحِك والغِبْطةِ فانهما طبيعته وديدنه . ألا نعود لحديث قرطبة . خبرينى كيف وجدتِ أسواقَها ؟

الأميره : دون أسواقِ أشبيلية حركة ونشاطا إلا سوقَ الكتب فلا أحسب بغدادَ أقامت مثلها ، دخلتُها ياأبى فلبثتُ فيها ساعة أتأمّل ما يقع فى جوانبها وأشهد النداء على نفائس الكتب وذخائرِ المخطوطات ، وهى فى أيدى الناس يقلّبونها فى اعتناءٍ وإشفاقٍ كأنها كرائم الجارةِ فى أسواق الجوهر .

الملك : وهل كنتِ تهتمين بكتابٍ هناك ؟

الأميره : أجل ياأبى . نُودىَ على رسالة المنجم الضبّى ، التى سماها : هل القمر مسكون ، وكنتُ سمعتُ بها وكنتُ أريد إحرازَها فسرنى الظفرُ بها ، وكان بالقربِ منى فتى حسنُ الهيئةِ ظريفُ الثيابِ هو لا شك من بنى البيوتات ، وكان ينازعنِى الرغبة فى الرسالةِ فلم يزل يزيد فيها وأنا أحرجه

فأزيد حتى بلّغها الى خمسِ مائة دينار فقبضتُ يدِى فرجع اليه المنادى فأخذَ المـالَ وناوَله الرسالة .

المـــلك : لا أظنّ حِرص الشابّ على الرسالة إلا للباهاة ، ولكى يقال عنده خزانةَ كتبٍ حوتْ كل ثمينٍ ونادرٍ حتى رسالةَ المنجم الضبيِّ فان الشهرةَ فى قرطبـة من قديم الزمان أن يتنافس الناس فى اتخاذِ الخزائنِ للكتب حتى الذين لا علم لهم بمـا فيها .

الأمـيرة : ظلمتَ يا أبى غريمى الشابّ فقد كنتُ ألحظ عليه الحِرص على الرسالة والسعىَ لإحرازِها حتى ما بقى فى نفسى شـك أن الفتى من أهلِ المعرفةِ والإطلاع .

المـــلك : وكيف هو يابثينة : ما شكله؟ ماصفته ؟

الأمـيرة : شاب يناهز الثلاثين ، جميل وقور يشبهك يا أبى أو كأنه أخى الظافر وما كان أعظمَ أدبَه ومروءَته فانه حين غلبنِى على الرسالة بادر فقال : أيها الفتى الملثم ! إن كان اعتناؤك

بهـذه الرسالةِ شديدا كما رأيتُ فعرفنى بموضعِ إقامتك وأنا أستصنع منها نسخة وأبعثُ بها اليك . فشكرتْ واعتذرتُ بكثرةِ أسفارِى فى الأندلسِ فانطلق شديدَ الفرح بمـا نال وكان جواده بانتظارِه فاعتـلاه فواللهِ يا أبى ما رأيتُ قط بعدَك و بعد أخى الظافر أرشقَ وثُوبا على جوادٍ ولا أحسنَ قياما فى صهْوةٍ من غريمى الشاب .

الملك [مبتسما وهو يضع يده على كتفها] : أخشى يا بثينة أن يكون غريمُك الشاب أعرفَ بتصيدِ القلوبِ منه باعتلاءِ الجياد .

مقلاص : الآن عرفته هو فتى السوق، هو فتى الرسالة .

[يدخل لؤلؤ و يقول] :

الجمـاعة يتواردون على مجلسِ الشرابِ أيهـا الملك فانظر ماذا تأمر ؟

بثينـــة : وأنا أيضا ذاهبة لبعضِ شأنى إن أذِنت .

المـــلك : فى كلاءةِ الله يا بثينة .

[تخـــرج بثينـــة] .

المنظر الثانى

« ترفع الستار الخلفية عن مجلس شراب الى جانبه ستر مسدل »

« وفى وسطه مائدة حولها الملك وجماعة من حاشيته وتطل »

« هـذه المنظرة على الوادى الكبير حيث للملك زورق » .

الملك : ما عندَكَ من الشراب لأصحابنا يالؤلؤ ؟

لؤلؤ : خمورُ مالِقة وزبيبِ اشبيلية .

الملك : وماذا هيأتَ لهم من نُقْلٍ وطعام ؟

لؤلؤ : الجوزُ واللوزُ من وادى الطلْح .

الملك [يرفع عقيرته ويغنى] : الجوزُ اللوزُ يارَبَّ الفوز .

أحد الحاضرين [الى جاره] : هـذا لحنُ الملك الذى يحبه ويهتِف به حتى فى الحمام .

مقلاص : ولحنى أيها الملك أتسمعه ؟

الملك : قلْ . هاتِ يا مقلاص .

مقلاص [يغنى] : الجوزُ اللوزُ بوادى الحوز (١) .

المـــلك : مرحى ! مرحى ! .

الحاضرون جميعا : مرحى ! مرحى ! .

الملك [لمقلاص] : تعالَ قِفْ خلفى يا مقلاص وقم عند رأسِى .

مقـــلاص : ها أنا قائم عند رأسِك الشريف هل أفلِّيه ؟

المـــلك : تأدّبْ يا وَقّاح القُمَّلُ لا يوجدُ فى رءوس المُلوك .

مقـــلاص : ما أدرى يا مولاى ولكنى أعلم أن القُمَّلَ يوجد فى لبـــدةِ الأسد وأنت أسد الأندلس الذى يعنو له الملوك .

المـــلك : لله ما أمرَّ لسانَك وما أحلاه . فهو كمِشرطِ الجراحِ المـــاهِر جمعَ مرارةَ القطعِ وحلاوةَ الشفاء .

الملك [الى لؤلؤ] : ثم ماذا يا لؤلؤ ؟

لـــؤلـــؤ : كلُّ مالذَّ وطابَ من الســـمك . بعضُه مجلوبٌ من بحـــرِ الزقاق . وبعضٌ من صيدِ الوادى الكبير .

---

(١) متنزه مشهور بالأندلس .

الملك [يتغنى] : الجوزُ اللوزُ يارَبَّ الفوز .

الملك [الى وزيره ابن سعيد] : ماذا يقولون فى المدينةِ يابنَ سعيد ؟

الـوزير : لا حديثَ اليومَ لأهـل أشبيلية الا تلك النكبةَ التى حلَّتْ بأبى الحسنِ التاجر .

المـــلك : واهًا لأبى الحسـن . وويحَ الأندلسِ ما أعظَمَ مصيبتَهُ فى تاجرِه العاملِ الموفَّقِ الأمين .

الملك [الى ابن سعيد] : وكيف وقعتِ الكارثةُ يابنَ سعيد ؟

الـوزير : كانتْ لأبى الحسـنِ التاجر فى لُجَجِ البحارِ ثلاثُ بوارج وهى ، الزُّهرة ، والثريا : والجوزاء ، خرجتِ الزهرةُ الى الاسكندرية تحمل اليها مقدارا عظيما من الزيت الأشبيلى فأخذها عاصفٌ فغَرِقتْ فى الطـريق . وأقلعتِ الـثريا بعد ذلك بايامٍ مشحونةً بالمتاجرِ المتنوعة الى ثغور الأندلسِ فصادفها أسطولُ للفِرنجة كان يتجوّل على الشواطئ فأخذها مَغْنَمًا باردا . وكانتِ الجوزاءُ قد سبقتْ أختيْها الى عَرضِ

البحرِ تقصِد سواحِلَ المغرب محمَّلةً الشيءَ الكثيرَ من مصنوعاتِ الأندلسِ ومتاجرِه فشبّتْ فيها النار فأعيا إطفاؤها فسقطتْ شعلة فى الماء .

الملك : ويح لأبى الحسن ويح ! !

الوزير : إن أبا الحسن أيها الملك شيخ كبير قد فرغ من الدنيا وفرغتِ الدنيا منه ، فمصيبتُه أقصرُ عمرًا وأهونُ وُقْعًا من مصيبةِ ابنِه الواحدِ وولدِه النابهِ الشاب حسون .

الملك : قد ذكرلِى اسمه وسمعتُ الثناء عليهِ من كثيرٍ من الناسِ .

الوزير : وإنه لكما نعتوه لك أيها الملك وفوق ما نعتوه : شابٌّ جميلٌ وقورٌ جريءٌ ، وافرُ القِسْطِ من العلمِ والأدبِ ، تعلّم لغةَ الإسبانِ حتى أجادَها حديثا وكتابة يجرى بها لسانه كما يجرى بها قلمه .

الملك : إن شابا هذا شأنه وهذه همته فى الحياةِ لا يتركُ نُبوغُه سدًى ولا يوكَلُ الى اليأس القاتل ، بل يجملُ بنا أن نأخذَ

بيده فنهوّن عليه عثرةَ أبيه البرئ .

الجماعة [يتهامسون] : ما هذا الستر ؟

آخر [همسا] : تُرى ماذا يُخفِي هذا السِتر ؟

ثالث [همسا] : ماذا خبأ لنا الملِك وراءَه ؟

الملك : فيم تتهامسون؟ لعلكم تذكرون الستر . إشربوا الآن ما بدا لكم واطربوا ؛ وأما الستر فستعلمون نبأه بعد حين . لقد وزعتُ عليكم من أيامٍ وفدَ النصارى من نُبلاءِ الإسبان فماذا صنعتم بهم وكيف ، كانت أنصبتكم ؟

الملك [ملتفتا الى وزيره دانى] .

الوزيردانى : كانتْ حِصّتى يامولاى أطيبَ الحِصص ، فضيفى شابٌّ نبيلَ طروبَ لطيفُ الأذُنِ ، مولعٌ بالقيثارةِ لا يضعُها من يده وله عليها ضرْبَ يأخذ بالألباب .

الملك [متبسما] : يسأل آخر من الجلساء . وأنت يابن الصائغ كيف ضيفك ؟

ابن الصائغ : أنا أقل الإخوانِ حظا أيها الملك ، فضيْفِي رجلٌ كهلٌ قِسّيسٌ يقطع الليلَ بالصلاةِ وتلاوةِ الإنجيل .

الملك : بل لعلك أعظمُ الجماعةِ حظا ولا تدرى .

ثالث من الجلساء [مخاطبا الملك] : أما أنا أيها الملك فقد ابتليتُ برجلٍ شيخ شِرّيب خمرٍ لا يُرويه فى اليومِ دِنٌّ ولا دنان . فاذا كان قبل كل طعامٍ قدّمتُ له زبيبى أشبيلية فأقبل يعبه عبا كما يقع الظمآن على الماءِ الزلال ؛ وقد شرِبَ من خمرٍ مالقة فى ثلاثِ ليالٍ أقامها عندى ما يكفينى أنا شهرا وأنا الذى يعرف الملِك وَلعِى بالخمرِ المالقى .

الملك : وأنت يا لؤلؤ كيف ضيفُك وما حاله ؟

لؤلؤ : إنه شاب يا مولاى خفيفُ الظل والروح ، مولعٌ بالرقص وأنا أتلقى عليه كل ليلةٍ دروسا فى الرقصِ الأسبانى حتى كدتُ أحسنه .

الملك : وأنتَ يا مقلاص . كيف ضيفُك وماذا يصنع معك ؟

مقـلاص : ضيفي يا مولاى رجلٌ كهلٌ بادنٌ ضخمُ الجثـةِ كالخنزيرِ المتدلى البطنِ من تراكبِ الشحمِ واللحمِ اذا جاء فى البيتِ وراح ارتجتِ الجُدرانُ واهتزّ ما على الرفوفِ من آنيـةٍ . واذا نام خرج الغَطيط والنخير من حلقهِ ومن أنفِه ومن كل موضع فيه ولو نام فى جبانةٍ لأيقظ غطيطُه الأموات .

المـــلك : وكيف طعامُه يا مقلاص؟ وما أحبُّ الألوانِ اليه؟ .

مقـلاص : هو يا مولاى مجنون المعـدةِ بالإوزّ . له كل صباحٍ على الريقِ إوزّة وغداؤه إوزّة وعشاؤه ...

الحضور جميعا : إوزّة .

الملك [ملتفتا لوزيره دانى] : وماعندك أنتَ يا دانى مما يقولون فى المدينة؟

دانى : يتهامسون فى المدينةِ بأن الفتنة قد تحركت شياطينها فى قرطبة وأن القـادرَ صاحبَ طُلَيْطُـلَةَ يسعى لأخذِها من ولدِك الأميرِ الظافر، وأنه يستعين فى دسه وكيدِه وتدبيرِه بالبطل حُريز وصاحبه ابن طولون .

المـــلك : الولاياتُ يا دَانى نحلايا النحل فيهـا العسل وفيها الأسل وأنا واثقٌ بحزمِ الظافرِ وعزمه والله يفعل بعد ذلك ماتشاء إن ضيوفَكُمُ النبلاءُ أيها الأصحاب سيكونون هنا بعد ساعةٍ .

الملك [الى جوهر] : وأنت يا جوهر آنظر . أين الجنديان ؟

جـوهر : بالباب يا مولاى .

المـــلك : أدخلْهما .

المـــلك : يدخل الجنديان .

الملك [الى الجنديين] : أين الكلب؟ ! أجئتما به ؟

الجنديان : هو بالبابِ يامولاى يرسُفُ فى قيودِه .

المـــلك : أدخلاه .

[يدخل ابن شاليب اليهودى يجر قيوده]

ابن شاليب : التحية والإجلال للملك .

المـــلك : تحية لا نتقبلها من رجلٍ شتمنا بالأمسِ بمسمع من رجالِنا وأعواننـا .

ابن شاليب : معاذا الله أيها الملك : ما شتمتُ ولا تهجمتُ ولا نسيتُ أني نزيل هـذه المملكة ، يجبُ عليّ لصاحبها التوقيرُ والإكبار .

الملك : بل أنت تكذِبُ يابنَ شاليب .

ابن شاليب : على رِسلك أيها الملك ، أنسيتَ أن ورائى ملكا عظيما يسألُ عن أمرِى وأنا سفيرُه عندك ورسولُه اليك ، وقد يغضبُ لى إن أنتَ نلتنِى بسوء .

الملك : فان كان السفير وَقَاحًا قليلَ الأدب ؟

ابن شاليب : هذا كثير أيها الملك فاجعل للإهانةِ حدًّا ولا تنسَ لى مكانى .

الملك : ستعلم مكانَك بعدَ قليل .

[الى ابن وهب]

أعِد يابن وهبٍ على هـذا الكلبِ ما لهِث به حين عرضتَ عليه مال الجزية .

ابن وهب : لقد همَّ يا مولاى برد المـالِ معتلًّا بسـوءِ العِيارِ ونُقصانِ

الإتاوةِ عن السنةِ الماضية وقال : بلغ سيدَك أنه لا يحول الحول حتى آتى فآخذَ عينيْه .

ابن شاليب : هذا كذبٌ واختلاق .

الملك : بل أنتَ الكذّاب . فما أنا بالملك الذى يكذب عليه وزراؤه وأعوانه . وما شرفُ الأندلسِ وجلالُهُ إلا عدلُ قضاتِه وقلّة شاهدِ الزورِ فيه .

ابن شاليب [يمرغ خدّيه على البساط و يقول] : ألا تعفو أيها الملك الكريم . فهم يقولون إن العفو شيمتكم معشر العرب .

الملك : إلا ما مس الشرفَ والكرامة .

ابن شاليب : أتقتلنى أيها الملك من أجل كلمةٍ سبق بها لسانى وأعمانى الغضبُ فلم أزِنها ولم أقدر عواقبَها .

الملك : عجبا يا وزير الفونس ... أنت تزِن القناطيرَ المقنطرةَ من الذهبِ والفضة فلا يفلِتُ من حسابك بُرادةُ مثقال . ثم لا تحسن أن تزِن كلمةً تخرج من فيك ! ...

ابن شاليب : أعفُ عنى واستبقنِى أيهـا الملك وأنا أشترِى منك حياتى بوزنِ جسمى ذهبا .

المـــلك : لا واللهِ ولا بثقلِه لآلئ و يواقيت وأنا أعلم أن وراءَك ملِكا عظيما هو عبد المـال . أما أنا يا ابن شاليب فعبد الله .

الملك [للجنديين] : أيها الجنديان خذا هذا المجرم فامضيا أمرى فيه .

[الجنديان ينقضان على ابن شاليب فيأخذانه الى ما وراء الستر المسدل]

الحاجب [يدخل] : نبلاءُ الاسبان بالباب يا مولاى .

المـــلك : يدخلون .

كبير النبلاء : التحياتُ للملك .

المـــلك : مرحبًـا بضيوفِنا النبـلاء . تفضـلوا وخذوا مجلسـكم وآطرِحوا الكلفة .

كبير النبلاء : شكرا يا مولاى ؛ هـذه الحفاوةُ بالضيفِ لا تستغرب من ملكِ العربِ الكريم .

الملـــك : تعالَ اجلس بجانبي أيها النبيل .

[يجلس كبير الأسبان حيث أشار الملك
يطوف لؤلؤ على القادمين بالشراب وبالنقل]

لـؤلـؤ : ماذا تَشتَهِي من الشراب ؟

كبير الأسبان : ما دمنا فى أشبيلية يا فتى الملك فانى لا أقدم على زبيبها الصافى المعطرِ شيئا .

أحد الحاشية [فى أذن جاره] : انظر السكير يا أخى كيف تجاهل خمر مالِقه وكيف نسِي أنه أنفد ذخيرتى منها فى ثلاث ليـالٍ أقامها عنـــدى .

[ضجة وشراب وأحاديث همس]

الملك [الى لؤلؤ] : دلنا يا لؤلؤ على ضيفك الرقّاص .

لؤلؤ [يشير الى أحدهم] : هو هذا النبيل يا مولاى .

الملك [الى الاسبانى] : إن فَتَاىَ لؤلؤ أيهـا النبيل مغتبِطٌ بما تعلَّم عليك من أصول الرقص .

الأسبانى : وأنا يا مولاى ما رأيتُ أسرعَ خاطراً ولا أرشـقَ حركاتٍ

ولا أحسنَ حِفْظا لما يلق عليه فى فنون الرقص من صاحبى لؤلؤ .

الملك : إن مطربى هذا ابنُ حزم يحسن الضربَ على القيثارة . وقد تعلّم فى صغرِه الكثيرَ من ألحانكم ونغماتِ رقصكم .

الملك [الى لؤلؤ] : فلْيرقصْ لؤلؤ على إيقاعِه .

الملك [الى الاسبانى] : وأنت ترسم له أيها النبيل النغْمة التى تصلح للرقصة .

[لؤلؤ وصاحبه الاسبانى يرقصان و يعزف لهما ابن حزم ... و يصفق لهما الملك والجماعة ثم يجلس الثلاثة بين الاستحسان والاعجاب]

الملك [فى جد الى جليسه الاسبانى] : أيها الضيفُ النبيل . أمر يَشْغَلُ بالى ويهمُّ به أصحابى وينتظرون حكمى فيه . وقد رأيتُ أن أنتهزَ فرصة الأنس بحضوركم لأسيرَ على ضوْءِ رأيك فى تصريفه .

النبيل الأسبانى : ليس أحبَّ الىّ أيها الملك ولا أزيدَ فى شرفى من

مشورةٍ خالصةٍ نافعةٍ ألقيها الى جلالتك .

المـلك : إذن فاعلم أيها الضيفُ النبيل أن أحدَ جيراننا الملوكِ أوفد إلىّ رسـولا فى مهمةٍ معلومةٍ فنسى الرسول مكانى حتى سبّنى بمسـمع من رجالى وأوعد وتهدّد . فما الذى يقضى به عُرْفُكم على رجل هذا فعله .

النبيل الأسبانى : مثل هذا جزاؤه القتل يا مولاى .

الملك [إلى النبلاء] : أسمعتم يا معشرَ النبلاء .

النبـلاء : سمعنا أيها الملك وقد أفتى كبيرنا وهو العدل والصواب .

المـلك : إذن فانظروا .

الملك [ثم لأحد الجند] : أيها الجندىُّ إرفع هذا الستر .

[يرفع الستر عن جثة ابن شاليب جثة هامدة معلقة على عود]

الجماعة صائحين : ابن شالِيب ؟

المـلك : هذا صاحبكم ابن شالِيب قد رمانى أنا ووزيرى هذا ابن وهبٍ بتزويرِ العيار والغِش فى الميزانِ وقال لرجالى وأعوانى :

بلِّغوا سيدكم أنني آتٍ فى العام القابل فآخذ عينيه من رأسه .

أحد الجماعة مستنكرا : وما ذنبنا نحن أيها الملك حتى عاقبْتنا بهذا المنظر؟

المـــلك : لقد تردّدتُ بين أن أقتلَه بأعينكم و بين أن أُعرِضَه عليكم وهـو كما ترون جثـة بلا روح ولكنى وجدت فى الرأى الثانى تخفيفا على ضيوفى فعمِلْت به .

[ثم ينهض الملك علامة الاذن فى الانصراف ويختلط بهم وهو يشيعهم]

المـــلك : انقلوا أيها النبلاء إلى الملك الفونس ما سمعتم، وصِفُوا له ما رأيتم، وتحدّثوا به فى طولِ بلادِكم وعرضِها ليعلم الناس هناك أن الأســد العربى لا يُشتَم فى عرِينِه وأنه لو غلِب على غابتِــه حتى لم يبق له منها إلا قاب شبرٍ من الأرض لمـا استطاعتْ قوى الإنس والجن أن تنفــذ إلى كرامتِه من قابِ هذا الشبر .

[ينسل النبلاء الأسبان من المنظره وهم يجرون سيقانهم جرا من الرعب]

الملك [إلى حاشيته] : الآن يا نبلاءَ العــرب نطوى هذا البساط ويبقى

هذان الجنديان حتى إذا خلت منا المنظرة رفعا الستر عن جثة ابن شالِيب ليعلم أهل أشبيلية كيف يحل العقابُ ممن يجترئ على شرفِ أميرِهم الذى هو شرفهم الرفيع .

المنظر الثالث

« الملك "نشوان" ومعه مضحكه مقلاص يدنو من زورق »

« على الوادى الكبير فيثب فيه و يقول ... ... »

الملك : أنظر يا مقلاص إلى هذا الزورق ما ألطفه ، صدق القول : كلُّ صغيرٍ لطيف .

مقلاص : إلا وظيفتى فى قصيرك فانها لا لطيفة ولا شريفة ، وإن هذا الزورقَ قد ينقلبُ فيأخذ شكل النعش ولن يكون النعشُ لطيفا أبدا .

الملك : هبه انقلب يا مقلاص فصار نعشا ، أليس النعشُ مركبَ كل حي وإن طالتْ سلامته ؟

مقلاص : أما أنا فيعفينى الملك .

الملك : لا يا مقلاص — لا أعفيك ولا أحسبك تدعنى أسير فى لُجة النهرِ وحدى وأنا كما ترانى نشوان .

مقلاص : وإن كان ولا بد أيها الملك فانى أقترح .

الملـــك : وما تقترح ؟

مقلاص : أن أكون أنا المجدِّفَ وحدى .

الملـــك : ولماذا ؟

مقلاص : الأمر بين ! التيار مجنون ، والسكر مجنون ، وأنت سلطان وكل سلطان مجنون ، وهذا الزورق خشبة لاعقل لها فهو أيضا مجنون ؛ وإنى أربأ بحياتى أيها الملك أن أجمع عليها مجانين أربعة .

الملك [مستضحكا] : لا يكون إلا ما اقترحتَ يا مقلاص تعالَ إركبْ وجدِّفْ وحدكَ واتركْ لى أنا الدفةَ .

مقلاص : أما هذا فنعم . وإنى أرجو أن تكون دفةُ هذا المركبِ الصغيرِ أحسنَ مصيرا فى يديْك من دفةِ المملكة .

الملك [مستضحكا] : تعال ثِب ؛ هاتِ يدَك .

[مقلاص ينزل الى الزورق و يأخذ المجدافين] .

الملـــك : أنظر يا مقلاص وراءك إنى أرى قاربا يندفع نحونا مسرعا

كأنه حوتٌ مطاردٌ مذعور .

مقـلاص : هو ذا قد دنا منا يا مولاى فأَحسنْ مسك الدفة واجتنِب الصدمة وأنا أذوده عنا بمجدافى هذا وأضربه ضرْبةً تقذِف به الى الشاطئ الآخرِ من النهرِ .

المـــلك : إياك أن تفعلْ ، بل إئسره فلا بدّ لنا أن نؤدّب هذا الشاب المغرور فانى أرى الملّاحَ فتى كريمَ الهيئةِ فهو لا شك من أبناء أعيان أشبيلية .

[يصطدم الزورقان و يظهر مقلاص ارتباكا وجبنا فيقبض الملك على الزورق المهاجم بيد قوية و يقول لمقلاص] :

المـــلك : إقذف الآن به إن استطعتَ الى الشاطئِ الآخرِ من النهرِ

[ثم يلتفت الى الشاب الملاح و يقول] : مكانكَ أيها الغلام الوقّاح ، ما هذه الجرأة على التيار وعلى شبابك هذا الغض النضير . وما غرك بالملك حتى قربتَ عودك من عودِه تريد أن تأخذ عليه الطريق .

المـلاح : مولاى . إن الرعيّة يَهفون . و إن الملوك يَعفون ، وزورق

إنما اندفع بقوة التيار القاهر فوافق مرورَ مركبك المحروس
فكان ما كان مما أعتذر الى الملك منه .

الملك [بصوت منخفض] : ويح أذنى ما ذا تسمع؟ هذا الصوتُ أعرِفُه!
[ثم يلتفت الى الملاح قائلا] : قد عرَّفناك أيها الفتى من نحن
فعرِّفنا بنفسك .

[يرفع الملاح قناعه] .

الملك [صائحا] . بثينة ؟

الأميرة [الملاح] : أجل أيها الملك ابنتك وأمَتُك بثينة .

الملك : عجبا أأنتِ هنا بين العَبَبِ والتيار وعلى هذا العود الذى
يشفق أبوكِ من ركوبه وأبوكِ من تعلمين أشجعُ العرب
قلبا .

الأميرة : ولِم لا تكونُ ابنة الملكِ شجاعةَ القلبِ مثلَه إن الأسد لا يلِد
إلا اللَّباة .

الملك [يهدأ غضبه] : ومن أين مجيئكِ الساعةَ يا بثينة ؟

الأميرة : من الموضع الذى أحبُّه كما أحبُّ الحجرة التى ولدتُ فيها ، ومن ناحيةِ السرْحةِ التى أحِنُّ لها كحنينى للقاصيرِ التى ضمتنى طِفلة ممهَّدة ، ومن بُقعةٍ مباركةٍ وقفتِ السعادة بك فى ظلها على أمى الرميكية فرأيتَها فأحببتَها أوّلَ وهلة . ولم تكن إلا غسالةً مغمورةً فتزوّجتها فرفعتَها أعلى ذُرى الشرف ومن هذا الزواج الموفّق السعيد ولدتُ أنا لأب قصّر الآباء عن برّه وملكٍ جل عن النظراء والأمثال . أليس ذلك المكان الذى هو مهد حبكما الأول من حقه أن يُحَنَّ إليه أحيانا بل من حقهِ أن يُحج آنا فآنا .

الملك [متأثرا] : بنفْسى وروحى أنتِ يا بثينة . لقد عظَّمْتِ المهدَ وقضيتِ الحقَّ والآن ألا ترجعين الى القصر بسلامٍ فلا أحسب القصر إلا قائما لغيبتكِ على ساقٍ حتى لكأنى بأمكِ تسأل عن أمرِكِ و بجدّتك أشغلُ وأشدُّ قلقا .

الأميرة : لقد كنتُ يا مولاى فى طريق الى القصر لولا هذا الاتفاق

السعيد الذى صدم عودى بعودِك والآن إذْ أمرتَ فانى أنطلق فى سبيلى وأستودعك الله يا مولاى .

الملك : إذهبى يا بنيتى فى كلاءةِ اللهِ وإياكِ والمجازفةَ فيما تفعلين فان الحياةَ أعزّ وأنفسُ من أن تُعرّض للتهلكة وأنهاكِ عن الخروج بعد اليومِ إلا مصحوبةً بلؤلؤ أو جوهر فانهما لا يألوانكِ خدمة وحراسة .

الأميرة : لا يكون يا مولاى إلا كما أشرت .

[تندفع بثينة بالزورق وتغادر الملك — وقد أطرق مليا إلى أن بدا لمقلاص أن ينبهه من هذه السنة] .

مقلاص : مولاى إن الشط قريبٌ وإن الأرضَ أصلحُ مجلسا لمثل ما أنتَ فيه من الهم والتفكير .

الملك : كيف رأيتَ بثينة وكيف وجدتَّ جرأتها يا مقلاص ؟

مقلاص : تلك اللّباة من هذا الأسد يا مولاى .

الملك : ما كل جرىء فطن ؛ وهذه الفتاة جمعت الحجا والشجاعة .

إنها تعلم أنى رجل رقيق القلبِ مجيب العاطفةِ وتعلم كذلك أن شيئا من النفورِ قـد دخلنى نحو أمها منـذ حينٍ فانظر كيف تحيَّلَتْ حتى ذكرتنى العهدَ القـديم . فوالله ما أنا الساعةَ بأقلَّ حبا للرميكية ولا عطفا عليها منى منذ عشرين سنة . جدِّفْ يا مقلاص جدف . سبحانك اللهم جعلتَ الولد سفيرَ المودّةِ والرحمة بين الوالدين .

[يندفع الزورق] .

المـلك [يتغنى] : الجوزُ، اللوزُ، ياربَّ الفوز .

مقلاص [يجيب] : الجوزُ اللوزُ بوادى الحوز .

[ســـتار]

الفصل الثانى

« خان التميمى فى أشبيليه حيث صنعت الموائد والأرائك وجلس اليها »

« قوم يتحدّثون ويحتسون الشراب . ابن حيون منفرد وحده الى مائدة »

« وأبو القاسم قادم عليه من باب الخان . حرير يجلس الى مائدة أخرى »

« وأمام ابن حيون . ورجال هنا وهناك يلعبون النرد والشطرنج »

« أو يطالعون بعض الرسائل ... ... »

أبو القاسم : ابنَ حيون ؟ ما أطيبَ هذا اللقاء .

ابن حيون : سيدى أبو القاسم يامرحبا يامرحبا ها هنا صُفّةٌ لينة ومجلس كريم فلو جلسنا ساعة نتحدّث . أزائرى أنتَ أبا القاسم أم جئتَ الخانَ فى شأنٍ يعنيك .

أبو القاسم : بل إياك قصدتُ يابن حيون . وإن الشوْقَ اليك لشديد .

ابن حيون : شوقٌ بعضُه من بعضٍ يا أبا القاسم ولكنْ من أنباك أنى مقيم بخان التميمىّ .

أبو القاسم : لقد عرفناك كالروادِ الرحل . لا ترى إلا فى خانٍ أوعند دوارسِ الأحجار .

ابن حيون : الخانُ والسوقُ يا أبا القاسم مدرستان من مدارسِ الحياة يتنفع بهما الرجلُ الأريب ... ألستُ فى هذا الخانِ كل يومٍ أبدل أهلا بأهلٍ وجيرانا بجيران واستعرضُ صوراً متحرّكة مِن الخلائق كلما احتجبتْ صورة خلفتها صورة ... وكيف حال أشبيلية يا أبا القاسم وهل من حوادثَ هنالك ؟

أبو القاسم : الحالُ إن لم يصلحها الله فمالها من صلاح . والحوادثُ يابن حيون تتوالى ولا تتولّى واليومُ مغبر والغدُ مكفَهِر .

ابن حيون : وابنُ عباد فى غوايته مستمر !

أبو القاسم : خل ابنَ عباد يا أخى لاتجرِ ذكره بسوءٍ فانه السيفُ الذى يرجوه العرب . والحِصنُ الذى يحتمون غدا فيه .

ابن حيون : لم تُنصِفْ يا أبا القاسم . طبعتَ للعربِ مِن الخشب سيفا وبنيتَ لهم من الشفير الهائر حصنا .

أبو القاسم : إتق الله يابن حيون ... بعضَ هـذا البغى ... للمعتمِد من المحاسنِ ما يغطى على مساويه . أجهلتَ إحسانه على أهل العلم وعَطْفهِ على أهل الأدبِ ؟ أجهلتَ كيف يربى أولادَه تربية لم نعْرِفها من الأمراء والملوك؟ أجهلتَ كيف يعامل الرميكيةَ زوجته الفاضلة معاملةً تحسِدها عليها عقائل الأندلس ؟

ابن حيون : آه يا أبا القاسم من ههنا دائى وههنا ثارى عند صاحبِك آبن عباد .

أبو القاسم : يَاعجبا كل العجب . ما هذا الثأر ما حديثه ؟

ابن حيون : اسمعْ أبا القاسم وأنصفنى .

أبو القاسم : تكلم يا بنَ حيون فكلى مسامع .

ابن حيون : كنتُ فى صدر شبابى صيادا شابا مليحا رأسُ مالى شبكة وقِـوام معيشتِى سمكة، وكانت تختلف إلى المواضع التى اختلِف اليها من النهرِ للصيدِ وابتغاء الرزق صبية غسالة حلوةُ الدلالِ بارعةُ الجمالِ كأن حديثها السحرُ الحـلال .

فانعقدتْ بيننا ألفة وكانتْ لنا مجالس على الماءِ كأنها أعراسُ النهرِ ولقاءاتٌ على الوادى الكبير كأنها أعيادُ الدهرِ ؛ أحببتُ الصبية وأحبّتني وتكلمنا فى الزواج وشرعنا نأخذ له أهْبته .

أبو القاسم [مقاطعا] : و بينما أنتما على ذلك طلع عليكما من النهر فُلْكُ عليه شارة الملك ، يحمل ملكا شابا جميلا فنظَر الصبيةَ فراعهُ حسنُها وكلمها فأعجبه أدبها . وارتجلت الشعرَ بين أذنيه فبلغ إعجابه بها الغايةَ فتزوّجها من يومِه فملأتْ قصورَه غِبْطة و بهجة وولدتْ له الشموسَ والأقمار . هذا حديث الرميكية يابنَ حيون وهذا خبرُ زواجِها يعلمه كل من فى الأندلس ويتناقلونه بالإعجابِ ويتحدّثون أن بنتَ الشعْبِ نزلتْ قصورَ الملكِ من أولِ يومٍ نُزولَ الأقمارِ فى هالاتِها ، وأنها من عشرين عاما الى اليوم قدوةُ عقائلِ الأندلس والمثال الأعلى بين أميراتِه ومِلكاته ؟ .

ابن حيون : وما كان ذنبي يا أبا القاسم حين احتقرتْ حُبي واستهانتْ بخطبتي؟ ! وكيف تريد مني بعد ذلك أن أكون لصاحبك المعتمد من المخلصين .

أبو القاسم : هبِ الأمرَ كان معكوسا يابنَ حيون ، وهب الفلك الذى وقف يومئذٍ بكما كان يحمل ملكةً شابة فاتنة الجمالِ بيمينها الجاه وفى شمالها المال فنظرتْك فأحبتْك ودعتْك لتبنِي بها وتشاطرها عزة الملكِ وثراءَ المالِ — أتُراك كنتَ تُعرِض عن الملكةِ وفاء بعهدِ الغسالة . لا والله يابنَ حيون ما كنتَ فاعلا ذلك . وهذا ما فعلتْ الرميكية . رأتْ ملكا كبيرا وشبابا نضيرا وفضلا وأدبا غزيرا فخلتْ نفسها من ذلك الوادِ وفضلتْ أصيدَ على صياد . عرفتَ يابن حيون أن ذنب الرميكية ليس بالعظيم كما توهمتَ . بقى المعتمد وأنا لا أجدُه اقترفَ اليك ذنباً أو أراد لك ضُرا بل أنا أقسم لو علِم ابنُ عباد يومئذٍ بما كان بينكما من الحب وما صرتُما

اليه من الخطبة ووشك الزواج لأخذكما فى كنفه وتكفلتْ لكما نعمتُه بالزواج ونفقته ، وبالبيت وجهازه وبالضيعة التى تُغِل عليكما وتبقى بعدكما على الأولاد .

[ابن حيون مطرقا] :

أبو القاسم : ابنَ حيون ، مالك مطرقا لا تنبِس ، ما بالُ عينيك تمتلئان استرِحْ يا أخى للبكاء واسكبْ دموعَ الندم .

ابن حيون : الآن استرحتُ يا أبا القاسم وانطرح عن صدرى أتونٌ من الحقد حملتُه عشرين عامًا حتى حنى الظهرَ وأكلَ الصدرَ وأدنى من القبر .

أبو القاسم : مسكين أنتَ ابنَ حيون إن حقدَ عشرين عاما لو جمع وقذف به فى جهنم لكان لها منه وقودٌ لا ينفَد .

ابن حيون : لقد شفيتنى أبا القاسم من ضلالى القديم فأرشدنى كيف أعتذر الى الرميكية عن سوء ظننتُ وبغضٍ أسررتُ وأعلنتُ وكيف أُكفِّر عما سلف منى فى ذاتِ المعتمدِ من

جهرِ السوءِ وهمسِه .

أبو القاسم : يغفر الله لك يابن حَيون إن الحقد ما خرج من قلبٍ إلا دخلته الرحمة وإني لأرجو أن ستُحِبَّ صاحبيْك وترحمهما وتحسنَ اليهما كلما وجدتَ الى الإحسانِ سبيلا .

[يطوف قيم الخان على الجالسين حتى يقف به الطواف]

[على المائدة التى جلس اليها حريز وابن لاطون]

قيم الخان : لعلّ السيديْن قد وجدا الراحة في هذا الخانِ الصغيرِ ببنائِه الكبير بأقدارِ زوّادِه ونزلائه ؟

حريز : ومن السيد ؟

ابن لاطون : هذا الأديبُ التميمى صاحبُ الخان وقيّمه .

قيم الخان : لعلى أيها السيدان بحضرةِ الأمير حريز أسدِ الأندلس وصديقِه ابنِ لاطون نِمر الجزيرة .

ابن لاطون : هو ذاك يا أخا تميم . هذا الأميرُ حريز بطلُ الأندلُس وواحده وأنا ابن لاطون خادمُه وكاتبُ ديوانِه .

قيم الخان : ياطيبَ هذه الزيارة وما أعظمَ شرفى بها ، لقد مر بنـا أيها الأمير منذ ساعةٍ ركبان حدثونا العجب عن ذلك السباق الذى أقامه ملك الفرنجة الفونس فى معسكرِه إكرامًا لك وحفاوةً بك وخبرونا كيف احتلتَ على الطاغيةِ فمرقتَ من ذلك الجيش الجرار ناجيا بجوادِك الصاعقة وظافرا بالأميرِ بطرس شقيق الطاغية .

حـريز : وكلاهمـا الساعة تحت سقف خانك هـذا . ففى بعض غرفة بطرس أمير الأسبان يأخذ قسطه من الراحة . وفى الإسطبل الصاعقة أمير الجياد يُعلف ويُستَجَم .

قيم الخان : يافرحا ياشرفا . أخو الطاغية أسيرٌ فى خانى نبأٌ والله عظيم لا تطلع شمس الغد حتى ينتشرَ فى الأندلس فتشتغل الدنيا بالتميمى ويهتم بخانه الناس .

حـريز : والصاعقة أمير الجياد أنسيتَه يارجل؟ إن اسطبلك ليتيه بهِ على مغانى الفرنجة وقصورِهم فاذهبْ فمر رجالك أن يعتنوا

به وليأتوا بما كان عليه من الأمتعةِ والأسباب فيضعوا ذلك كله فى هذه الزاوية من الخان .

قيم الخان : سيكونُ ما أمرتَ ياسيدى .

[يخرج الأمير بطرس من غرفة الخان]

[فينهض حريز وابن لاطون حفاوة به]

الأمير حريز : الأمير بطرس ؟ لعلك أخذتَ قسطك من الراحة .

الأمير بطرس : أجل قد استرحتُ يا حريز والان خبرنى ما أنتَ صانع بى لقد أصابتِ الحُبالة فما أنتَ صانعٌ بالصيد .

حـــريز : إنها أيها الأمير حُبالةٌ كريم .

بطـرس : ولكنى على كل حال أسيرُك ياحريز .

حـــريز : أجل ولكنك الحاكم فى الأسر .

بطـرس : لم تنصف أخى الملِك ياحريز . اطمأنّ عليك فخدعتُه ووثِقَ بك وخنتَه وأطلق لك جوادَك الصاعقـةَ وأسرتَ أخاه .

حـــريز : نحن فى حربٍ معكم أيها الأمير والحرب لا تُسأل عما تَفعل

وأنا صاحبُ حصنٍ للعرب يحاصره أخوك وفى الحصن أبطالٌ لا يعرفون الخوفَ ولكنهم بَشَرٌ يعرفونَ الجوع . ومنهم المرأة والصغير والشيخ الفانى الكبير ؛ وحصنى يوشك أن يسقط بعد طولِ الحصارِ وضيقه .

بطـرس : إذن يهمك أن يخرج النساء والأطفال والشيوخ من الحصن .

حـريز : أراك فهمتَ أيها الأمير .

بطـرس : إذن فاعلم ياحريزُ أنك إن خليتَ الأن سبيلى فرجعتُ الليلةَ إلى معسكرى وقومى فانه لا يُصبح الصبحُ حتى يطلق سراحُ كل من فى حصن رباح وينالهم من برأخى وعطفه ما ينسيهم جراحَهم ولا ينزَع من رجالك سلاحُهم بل تُترك للأسد أظفارُها .

حـريز : هذا ما أبغى أيها الأمير .

بطـرس : وأىّ الأقسامِ تريد أن أعطيك عليه ؟

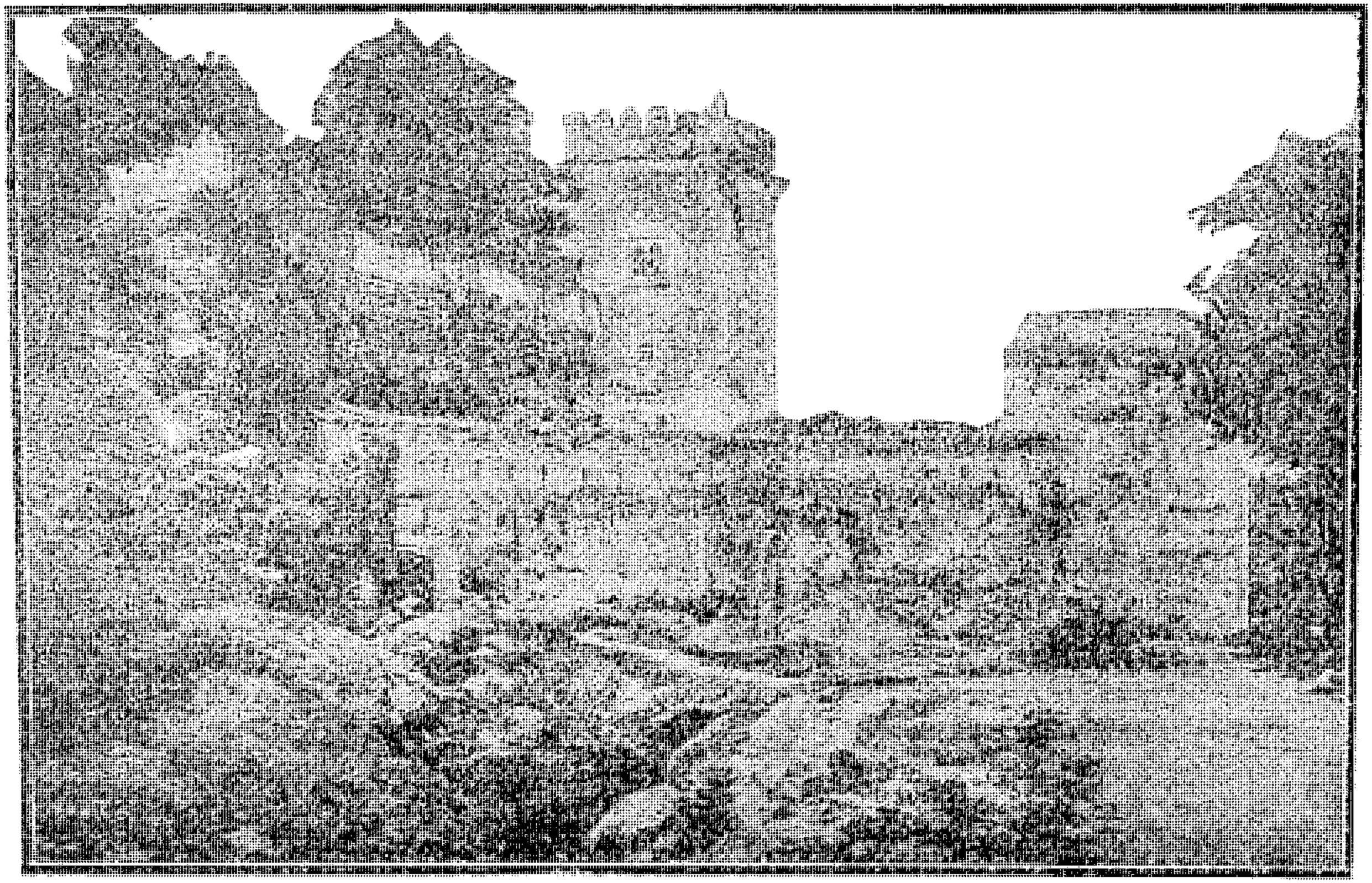

قلعـــة من قـــلاع الأندلس

حـريز : إن الرجلَ الشريفَ كلمتُه قسَمٌ وإشارته يمين ؛ فأنا أكتفى بما سمعتُ من وعدِك فانطلق الآن محروسا بعناية الله وعد لأخيك الملك فبلغه تحيتى و إجلالى وخبره بأن ربحى من ذلك السباق كان عظيما فقد غنمتُ صحبةَ أخيه الأمير النبيل الكريم وغنمتُ أيضا خلاص رجالى فى الحصن . وخرجتُ فوق ذلك من الميدان بكنوز طُلَيْطُلَةَ وجواهرِ ملوكها بنى ذى النون .

الأمير بطرس : كنوز طيطلة؟ خرجتَ بها بين عين الجيش وأذنه ؛ يالك من داهيةٍ عتيد . أكانتْ هذه الكنوز معكَ حين أتيتَ للعسكر ؟

حريز [ضاحكا] : كلا أيها الأمير بل كانتْ فى طليطلة وفى خزائن ملوكها بنى ذى النون و إنما احتلتُ حتى حملتْ إلىّ مع الصاعقة إذ أمر أخوك الملك أن يذهب الى المدينة المحصورة من رجاله ورجالى فمن يأتى بالصاعقة .

بطـرس : عجبا . لقـد رأيتُ الصاعقة حين جيء به من طليطلة فلم أرَ عليه شيئا من الأحمال والأثقال فهل كان يحمل فى بطنه الكنوز ؟

حريز [ضاحكا] : ولم لا تقول إنها كانتْ على ظهره أيها الأمير ... ... (مناديا) يا تميمىّ .

التميمى : مولاى .

حـريز : إدفع الى الأميرِ جوادَه قيصر وشيِّعه بفارسين من أشـد رجالك يرافقانه حتى يبلغ خطوط الفرنجة .

بطـرس : فى حفظ اللهِ يا حريز .

حـريز : بذمةِ الله أيها الأمير .

[يخرج حريز مشيعا الأمير بطرس الى باب الخان ويعـود فيجلس على مائدة مع ابن لاطون]

ابن لاطون [يسأل حريز همسا] : لقـد ذكرتَ أيها المولى كنوزَ طليطلة للأمير الأسبانى فأين هى منا الآن ؟

حـريز : هى معنا يابن لاطون بين أعيننا وفى خِفارةِ سيفينا ولكنك

لا تراها ولا يقع فى وهم واهيم بأى موضع هى من الخان .

[يسمع من خارج الخان مناد ينادى متغنيا]

منادى : أنا ذا طاهٍ أتاكم من شريش بقطائف
من يذقْ حلواىَ يبرز لحريزٍ غيرَ خائف

حريز : لله ما ألذَّ الصوتَ وما أحسنَ الشعر .

ابن لاطون : وإنا نرجو ألا تكونَ القطائف دونَهما لذةً وجوْدة .

[حريز متجها الى باب الخان]

حريز : تعالَ يا صاحبَ القطائف . أتعرفْ أيها الرجل حُريزًا الذى أشدتَ بذكره فيما أنشدت ؟

البائع : أو تجهله أنتَ كائنا من كنتَ وهو عنترةُ البيد وحيْدرةُ الحمى ونادرة الزمان ؛ أعرفُه بأمسه و يومه كما يعرفه سائر الناس .

حريز : وكيف صفتُه ؟

البائع : رجل عِمْلاقٌ أشمُّ طويلُ الساعدينِ عبْلُ شَمَرْدَل .

حريز : كفى يا شريشى كفى إكشفْ عن بِضاعتك لنرى أينَ

المنادى عليه من النداء .

[البائع يعرض الصينية مكشوفة]

صوت من الحاضرين : تعالى الله ما أشهى .

صوت آخر : تعالى الله ما أطيبَ .

حـريز : بكم تبيعُنى هذه الصينيةَ يارجل .

البـائع : كل ما أعطيتَ مقبول أيها السيدُ الكريم .

حريز [ويلقى اليه صرة دنانير] : خذْ هذه الصرَّةَ مباركًا لك فيها .

البـائع : ولكُمْ فى القطائف أيها الطاعِمُ الكريم .

حريز [للحاضرين] : تعالَوا أيها الإخوان نتقاسمْ هـذه اللقْمَةَ الطيبة .
تفضلوا . أقبِلوا . ذوقوا معنا من هذا اللون الذى ذاعتْ
شهرتُهُ فى البلاد حتى قيل إنّ من دخل الأندلسَ ولم يذقْ
من مجبناتِ شريش فما عرف من متاع الأندلس شيئا .

أحد الحاضرين : إن لهذه القطائف لطيبا يسكر من بعيد .

[الجميـــع يأكلون]

أحدهم : ما ألذ .

ثان : ما أطيب .

حريز [وهو يأكل ملتفتا الى ابن حيون] : ما بالُ الأديب لا يجيبُ الدعوةَ .

ابن حيون : إنى صائم أيها الأمير .

حريز : تقبَّل الله منكَ وإن أنتَ لم تَقبلْ منَّا .

أحد الحاضرين [على المائدة وهو يأكل] : هذه المائدةُ جمعتْ العلَفَ والشرفَ . فوالله ما كان أحدكم يحلم أن يؤاكل أسدَ الأندلس .

آخر : حق إن هذا لهو الشرفُ العظيم .

[ينفرغون من الأكل] .

حريز : يا ألله ماهذا الدوار ؟ ! ابن لاطو ... .

ابن لاطون : وأنا أيضا كأنى داخل فى غيبو ... ... بة .

رجل [لصاحبه] : كيف تجد الدنيا فى عينك ياضبّى ؟

الضبى : مظلمةٌ صاعدةٌ نازلة .

الرجـل : وأنا أيضا أجد الدنـ ... ... يا .

أبوالقاسم : لقد رُحْمتَ بصيامك يابنَ حيون فانى أظنّ القطائف طبِختْ بالبنج وأخذتْ تصرعـ ... ني .

ابن حيون [مذعورا] : ياويح للجماعة غودروا صرعى وويح لك أباالقاسم سقطتَ سليبَ العقلِ والحرَاك .

[يظهر صاحب القطائف ويصفر فيدخل جماعة من اللصوص] .

ابن حيون [وقد امتلأ المكان باللصوص] : ياألله! امتلأ المكان باللصوص . الآن تبينت أن القطائف كانت مصيَدة لم يعصِمْنِي منهـا إلا الصيام .

ثم لنفسه [همسا] : تناومْ يابن حيون "و يتناوم على مقعده" .

صاحب القطائف : يا أصحابَ الباز . غدا يتحدّثُ الأندلس أن صاحبكم صرعَ الأسـد وأخذ الصاعقة من فارسه الجبار وقد خصصت نفسى بأمير الخيل الصاعقة فهو حصتى من غنائم اليوم وما سواه فهو لكم تقتسمونه بينكم فدونكم الجيوبُ

ففتشوها وعليكم بالحقائب فانبشوها وخذوا أثاثَ الخان وعُروضه كل ما خفتْ زِنته وعظُمتْ قيمتُه .

أحد اللصوص : ولكنّ الصاعقة عريان لا سرْج عليه أيها الزعيم .

البازى : بجياد الأندلس جميعا هو كاسيًا كان أو عريانا .

لص آخر : لقد لمحتُ أيها الزعيم فى زوايا الاسطبل سرجًا محلى بالذهب والفضـــة .

البازى : أوأنتم تاركون لى السرْجَ المذهبَ المفضضَ أيها الأصحاب؟

اللصوص : نحن وما نملك للزعيم .

البازاللص : إذن فاسبقْنى يا شهابُ فضع السرجَ المذهبَ على الصاعقة وانتظرنى هناك .

[يأخذ اللصوص فى السلب والنهب و ينسلون واحدا إثر واحد بمـا حوت أيديهـــم و يبقى رجل منهم فينحنى على سرج عاطل يتأمله و يظن ابن حيون المكان قد خلا فيستوى فى مجلســه و يقع نظر اللص عليه فيرمى السرج العاطل عليــه قائلا ...]

أحد اللصوص [لابن حيون و يرمى عليه السرج العاطل] : خذْ يا شـيخَ السوء

هـذه الخشبَة لعل فيها العوضَ عمـا أفاتَك الصيامُ من القطائف .

[ويخـــرج اللص] :

ابن حيون [لنفسه] : شلّتْ يدُ اللص ؛ لقـد قذَف السرْج بقوّةٍ حتى كسرهُ ولو أصابنى به لتركنى جثةً بلا روح ، يا لله ، تُرى أىُّ شىء فى فروج هذا السرج .

[يدنو منه و يمسك به ثم يتأمله و يدس فيه يده] .

ربِّ ما هـذا الحصي ؟ أى مجنون يملأ سرجه بهـذه الأحجـار ... !

[ثم يستخرج عددا من الأحجار البارقة و يقلبها بين يديه مذهولا قائلا] :

لآلئ ! يواقيت ! أبا القاسم قم فانظر إن الذى حشا رأسَكَ بالعِلْم والفِقه قد حشا رُدْنى باللآلئ والياقيت .

[ثم لنفســه] يا ابن حيون أين يُذهبُ بك ؟ هذا كنزُ ملِك عظيم من أقيال الروم جدّ به الحرصُ وخاف امتدادَ الفِتنة الى كنزه ،

فاختار له هذا السرج البالى وفى نفسه أن يصونَه أو يموتَ دونه فأخلَفَ الدهرُ ظنونَه .

[يجمع اللالئ بين الدهشة والاضطراب و يقول] :

ابن حيون [و ينظر الى اللآلئ] : لآلئ! يواقيت! ماس! زمرد!

رباه هذا عجل الذهب ، هذا هو معبودُ الناسِ بعدَك هذا هو المـال .

[ســتار]

الفصل الثالث

« بستان أمام دار أبي الحسن . الى يمينه باب الدار ومن ورائه شاطئ »
« الوادى الكبير — أبو الحسن جالس فى هـذه الساحة و بين يديه »
« تابع له هو (سـعيد) وجماعة بالقرب منه من السماسرة يتهامسون »

أبو الحسن : ما هـذا ؟ ما أرى ؟ إنى لا أعرف هذه الوجوه ؛ فمن الرجالُ يا سعيد وما يبتغون ؟

سـعيد : هـذه الوجوه تحومُ على الدارِ منذ حينٍ يا مولاى وتسألُ عن أجزائِهـا وتستفهمُ عن مشتملاتِها ؛ وتتحـدثُ عن المكتبةِ خاصة وما عسى تضم من نفائسِ الأسفار .

أبو الحسن [رافعا وجهه الى السماء] : لطفكَ اللهم ! لقد لهج الناس بالنكبةِ واشتغلوا بالمنكوب ، وما أولع الناسَ بالناس .

[ثم الى الرجال] : أيها الرجال تعالَوْا فان كنتم ضيوفًا فيا مرحبًا بكم ، و إن

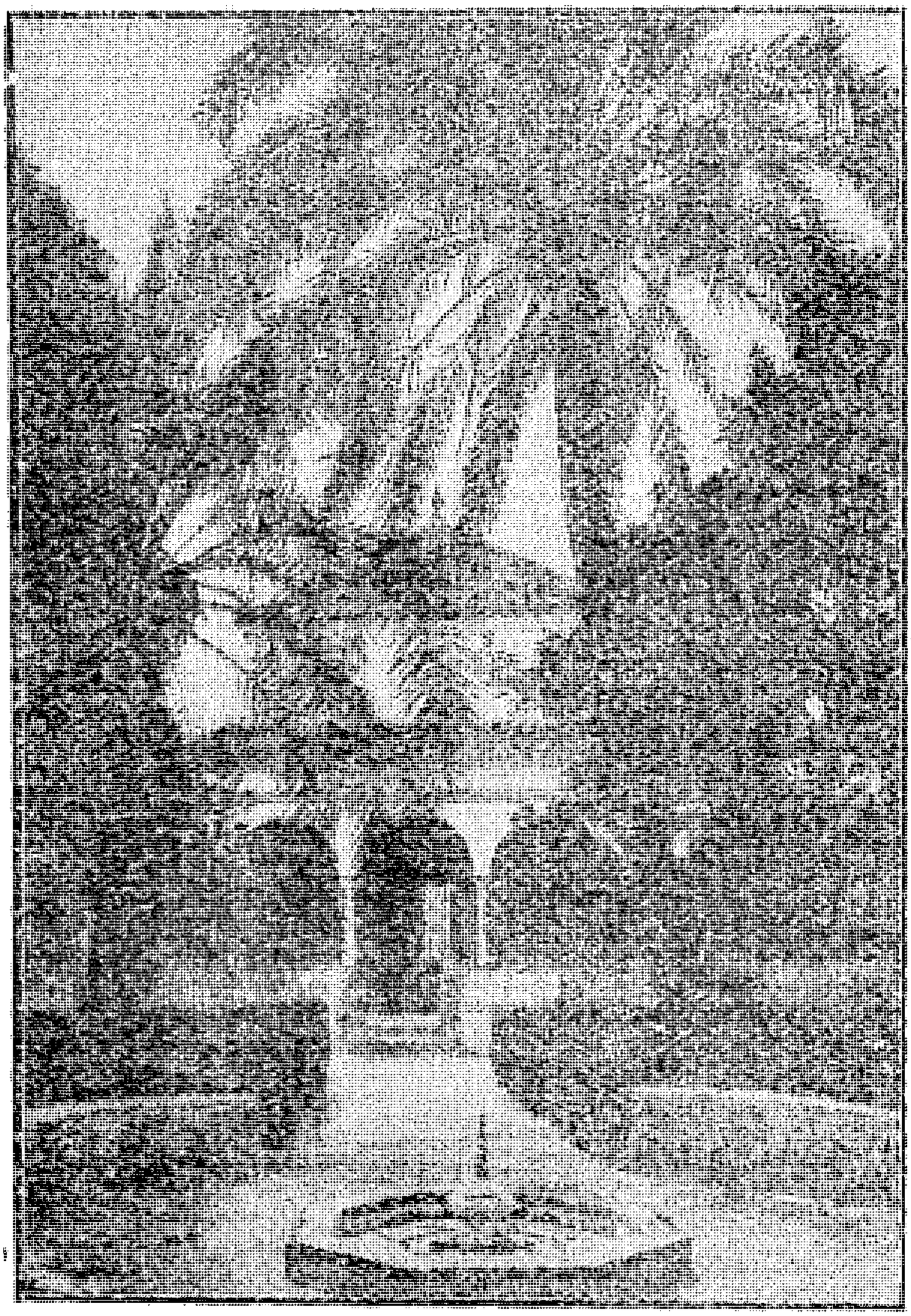

دار أبي الحسن التاجر

كانتْ لكم حاجاتٌ تريدون قضاءَها فهاتوا آذكروا .

أحـدهم : إيذن لى يا سـيدى التاجر أن أصارحَك القولَ فليس مركزُك بسرٍّ ؛ والدارُ معروضـة لا محالة ، فلنبعْها اليوم ، فقد تغبن جدّا فى الغد .

أبو الحسن : أتُشـفِق على الدارِ أن يكسُد سـوقها فى غدٍ ؟ أم تشفِق على نفسِك أن يكون السمسار غيرَك ؟ ... بكم قوّمتُم الدارَ أيها الوسيط المجتهد ؟ وأىّ ثمنٍ تعطون ؟

أحـدهم : عندى المشترى لهـا بخمسين ألف دينار يا سيدى التاجر . تحمل اليك فى الصباح إن قبلت .

أبو الحسن [الى الثانى] : وأنتَ فماذا عِندك ؟

الثانى من السماسرة : عندى الراغبُ الذى يزيد خمسةَ آلافِ دينار .

أبو الحسن [مشيرا الى الثالث] : وهذا الثالثُ الآخَر . ماذا عندَه ؟

الثـالث : عندى أيها السيد أن صديقا لك لا أسمِّيه يريد أن يشترى مكتبَتَكَ بالثمنِ الربيح فهل انتَ بائع ؟

أبو الحسن [فى غضب] : والمكتبةُ أيضا أخذوا يتحدثون فى شرائِها !
وسادتى وفرشُ نومى أما لهما عندك من طالب أيها
الرجل ؟ أُعزُبْ عنى ! أعزُبْ وخذ صاحبيْك معك
وانطلقوا . إن النكبة لم تبلغ بعدُ تمامَها ولم نَبلغ معها
الى اليأس .

[يقترب شيخ غريب الثياب ملتفتا الى الرجال الثلاثة قائلا] .

[المغربى الشيخ] : تلك والله وقاحة !

أحد السماسرة : حجلتَ فيها يا وجهَ النحْس !

[ينصرف السماسرة] .

أبو الحسن [يناجى نفسه] : ظهرَ فيك السمسارُ يا دار ! اللهم أنتَ
أعطيتَ وأنتَ أخذتَ وأنتَ تعلم أنى لستُ التاجرَ اللِّص
ولا المحتال ، فألطف بى فيما قضيتَ وأعِن ولدى حسوناً
على ما يواجِه من فِرار النعمةِ وانتقالِ الأيام [ثم يشعر براحة
ويقبل على الشيخ المغربى قائلا] : وأنت يا شيخَ البربر ماوراءَك ؟
المغربى : أنا زائر ياسيدى التاجر . وربما كلمتك فى شأنٍ يكون

فيه ارتياحك ورضاك .

أبوالحسن : مرحبا بالزائر . تعالَ يا سيدى تتحدثْ على هذا الفضاء الطلقْ . وفى ظل هذا الروض الكريم [يسيران قليلا ثم يجلسان] .

المغربى : أنا يا سيدى التاجر رجلٌ من أغنياءِ المغرب . حبَّبَ الله اَلَىَّ السياحةَ فى أرضِه . أجوبُ منذ كنتُ البر وأرفعُ شِراعَ البحر . الى أن دفعتنى الأسفارُ منذ أيامٍ الى مدينتِكم هذه أشبيلية الغناء وكنتُ سمعتُ عنها وقرأتُ الشيءَ الكثير . فلما نزلتها ودخلتُ فى مواضِعها وخرجتُ ملأتْ نفسِى وشغَلتْ خاطرى . فاعتزمتُ أن أجعلَها قَرارى ومُلقى عصاىَ فى رِحلةِ الأيام .

أبوالحسن : ما أسعد أشبيلية يا سيدى بابنِها الجديد البار .

المغربى : مهلا يا سيدى التاجر وخذ الحديثَ الى آخِره ، لم يبقَ فى نفسِى من هوى الأسفارِ إلا جولةٌ أجولها فيما وراء هذا الأندلُسِ من ممالكَ للفِرنجة وديار . فاذا كتبَ الله لىَ

السلامة ؛ أتيتُ هذه المدينةَ فاتخذتُها وطناً وديارا .

التاجر أبو الحسن : مشيّعًا بالسلامة والكرامة .

المغـربى : ولكنى مزمِعٌ سفَرا شاقا بعيدا . وما يدرِى المسافر ما وراء الغربةِ من الفُجاءاتِ ، وما تدرى نفْسٌ بأى أرضٍ تموت ؛ ومعى يا سيدى من كريم الجوهرِ ونادرِه ما أخشى عليـهِ السَّرقة او الضَّياع وأنا منقطعُ الوارتِ لا أهلَ ينتظرونَنى ولا ولد ، ولقد مررتُ بدارك هـذه مرارا فكنتُ كلما زدتهـا تأملا زادتْنى بهجةً وروعةً . حتى حدثتنِى النفسُ بشرائِهـا .

أبو الحسن [فى غضب] : أأنتَ أيضا ياسيدى أتيتَ تساومُنِى فى الدار !

المغـربى : دعنى أستَتِمَّ يا أبا الحسن فانى جاد ! ما أنا بالمساوِم ولا بالرجلِ الذى يلتمس الفوائدَ لنفسِه من مصائبِ الناس ؛ ولكنى جئتُ أخطبُ اليـك الدارَ وأَجعَلُ مهرَها ما أُقـدِّرُ أنا لا ما تقدرُ أنتَ ولا الناس .

أبوالحسن : ماذا تريدُ ياسيدى؟ بيْن! صرِّحْ! إنى لا أفهمُ ما تقول!

الشيخ المغربى [ويخرج عقد لؤلؤ من كمه] : هذا عقدٌ من كبيرِ اللؤلؤِ وخالصه قيمتُه زُهاء المائةِ ألفِ دينار فخذْه ياسيدى ثمنا لدارِك وآبَق فيها وآحرسها لى حراسة القيِّم الرفيق . فان لقيتُك سالما بعد ثلاثةِ شهورٍ تمضى من يومِنا هذا نزلتُ فى دارِى ؛ وإن مضتْ هذه المدة ولم أعد ، بقيتْ عليك الدار مباركًا لك فيها ولوَلدِك .

أبوالحسن : ولكن يا سيدى هذا الثمنُ كثيرٌ جدا لدار يشتغل بها الآن السمسارُ والدّلّال .

المغربى : بربك أيها السيد لا تُعرِض عن خيرٍ ساقه الله اليك ولا تَقِف لأهلِ المروءات فى سبيلهم ولا تستنكِرْ على رجلٍ قد زاد مالُه حتى ما يدرى ما يصنعُ به أن يُعين بفَضلةٍ منه كريماً مثلكَ طالما آسى الجروحَ وأفالَ عثراتِ الكرامِ فأجِز الصفقةَ يا سيدى أجِزْها .

أبو الحسن [ينظر الى العقد قائلا] : أمائةُ ألفِ دينار ؟

المغـربى : أجل يا سيدى فى أقل تقدير .

[أبو الحسن يأخذ العقد و يتأمله و يقلبه وفى هـذه اللحظة يرسو شراع فتنزل منه بثينة متنكرة فى ثياب شاب ومعها جوهر ولؤلؤ]

أبوالحسن : ما ذا أرى ؟ ماهذا الشراع ؟ مَن الفِتْيةُ ياترى ؟ إيذن لى أيها الزائرُ الكريم وانتظرنى فانى عائد اليك من فوْرى .

[يتجه أبو الحسن نحو القادمين من الشراع . المغربى يزيل تنكره فاذا هو ابن حيون . حسـون يلمح ابن حيون من داخل الكشك فيناديه من وراء مجلسه] .

حسـون : تعالَ يابنَ حيون ألاعبْكَ الشِطْرنج .

ابن حيون : لبيْك ياسيدى حسون .

[ويدخل ابن حيون الى حسون عند اقتراب أبى الحسن من القادمين يسارع اليه ابن غصـين واؤلؤ وجوهر] .

ابن غصين (بثينة) : السلامُ عليكم ياعمّ .

أبوالحسن : وعليكمُ السلامُ يابنىّ .

ابن غصين : لمن ياعمُّ هذا القصرُ المنيفُ وهذه الربوةُ الغناء ؟ .

أبو الحسن : هذا الكوخُ يابنى لخادمكم أبى الحسن التاجر .

ابن غصين : تسمِّى غرفةَ الفردوْس كوخا ! هذا منتهى التواضع ياسيدى التاجر .

أبو الحسن : ومن السيِّد ؟

ابن غصين : ولدُك ابنُ غُصين من أبناء أعيان قرطبة، وهذان جوهر ولؤلؤ صاحباى ورفيقا سفرى .

أبو الحسن : مرحبا مرحبا بشباب قرطبَة النابهْ . إنى أرى الدار قد أعجبتكم يابنىَّ وإنه ليسرُّنى ويشرِّفُ قدرى أن تدخلوا فتقضوا ساعة مع ولدى حسون فانى أرى عليكم الفضلَ والأدبَ والمجادَةَ ، وحسون لا يصاحبُ ولا يجالسُ إلا أهلَ الفضلِ والنُّبْلِ ، فتفضلوا أيها الأدباء وشرِّفوا أخاكم بزوْرة وأنتم واجدون عند حسون كلَّ ما يشتهى النّشْءُ المثقَّفُ ؛ ففى خزانته ما قدُم وما حدث من آلاتِ

الطربِ حتى عودَ زرْياب .

جوهر [بصيح] : عودُ زِرْياب ؟

أبوالحسن : أجل يابنى ذلك العودُ الذى على أوتارِه كان عوّاد الأندلُس يُسمِع الخلفاءَ ما توحى اليه الجن من روائع الأَلحان وتجدون كذلك عند حسون مكتبةً لم يُجمع مثلُها فى البلاد . قد حوتْ الذخائرَ فى كل علم وفنّ .

ابن غصين : وكيف ولعُ فتاك ياسيدى بعلم الفلكَ ؟

أبوالحسن : أشد الولعِ يابنىّ وقد جمع الكثيرَ من نفائس المخطوطاتِ فيه وفى أولها رسائل المنجم الضبىِّ .

ابن غصين : المنجم الضبي ؟

أبوالحسن : أجل يابنىّ وأذكر أنه من شهرين أو أكثرَ أو أقلّ ، قد انتهت الى حسون رسالةٌ مما وضع الضبي فدخلَه من ذلك فرحٌ يشبه الجنون .

ابن غصين [لنفسه] : رسالة للضبي من شهرين أو أكثر أو أقل ؟ ! بشراك

ياقلب إنه هو ؛ وبشراك ياعين ستكتحلين به الساعة
[ثم الى أبى الحسن] لقد شُقْتنا الى ولدِك الفاضل أيها السيد
فأين من يستأذن لنا عليه ؟ .

أبوالحسن : يامرحبا ! يامرحبا ! ما أعظم حظ حسون . إتبعون ياسادة اتبعون ، فانى دليلكم الى ناديه ، وإنى أرجو أن سيُعجِبكم ، إن حسون شابٌّ قد ألقى اللهُ عليه محبة للناس .

[أبو الحسن مع ابن غصين ورفاقه يقفون أمام
كشك حسون . ابن غصين يلحظ لعبة الشطرنج] .

أبوالحسن [لابن غصين] : هو ذا حسون ياسيدى يلعب الشِطْرنجَ مع صديقٍ لنا قديم كريم لاتخلو منه الدارُ ساعة .

[أبو الحسن ينادى ابنه] .

أبوالحسن : حسون يا ولدى .

حسون : لبيك .

أبوالحسن : هذا ابن غصين من نبلاءِ فتيان قُرطبةَ ومعه صاحباه ورفيقا سفرِه يريدون أن يجتمعوا بك ساعة .

حسـون : يامرحبا ! يامرحبا ! أهلا وسهلا بالسادة .

أبوالحسن : لقـد جمعتُك بضيفانِك الكرام ياحسـون والآن أتركُكُم فى حراسـةِ الله لأعود الى زائرِى المغرِبى فانه بانتظارِى وأخافُ أن يأخذه القلَق .

[أبو الحسن يرجع يفتش عن المغربى فلا يجده] .

أبوالحسن : يا لله . أين الشيخ ؟ أين ذهب [مناديا] سعيد .

الخـادم : لبيك يامولاى .

أبوالحسن : ماصنع الله بالشيخ المغرِبى الذى كان ههنا منذ لحظة ؟ .

سـعيد : لا أدرى أين ذهب يامولاى .

أبوالحسن [ينظر فى يده وكان قد نسَى فيها عِقدَ اللؤلؤ] .

أبوالحسن [لنفسه] : ويحِى ما ذا أرى ! هذا عِقدُ اللؤلؤ فى يدِى نسِيتُه فيها يانجلا ! ماذا يقولُ الرجلُ عنِّى ؟

ابن حيون [من داخل الكشك] : سـيدى أبا الحسن لقـد لمحتُ زائرك المغرِبى خارجا من الدارِ يهرول فعبثًا تبحثُ عنه .

[حسون مع ابن غصين ورفاقه وابن حيون] .

ابن غصين [لنفسه] : إلهى . صدقنى القلب ما حدث وقلّما تكذب القلوب ، هذا هو شاب قرطبة الذى لم يخل منه القلب دقة

[ثم الى حسون] الآن صدّقتنى الذاكرةُ فنحن ياسيدى قد تعارفْنا قبل اليوم .

حسون : وأين كان ذلك ؟ وكيف نلت هذا الشرف ؟

ابن غصين : فى سوق الكتب بقرطبة من نحو شهرين أو أقلّ أو أكثر .

حسون : لله ما أعظمَ حظى . أنتَ والله ياسيدى ذلك الفتى الملثّم الذى نازعتُه رسالةَ الضبىِّ ونازعَنيها حتى غلبتُه عليها . نعم أنتَ هو ، وهذا صوته ، وهذه شمائله ، فكيف اهتديتَ الى كونى أيها السيد العزيز ؟ يامرحبا ! يامرحبا ! جعلها الله بيننا صداقة الدهر .

ابن غصين : ولكن أنتَ ياسيدى تلاعبُ صاحبَك الشطرنج وأخشى أن أقطعَ عليكما لذّة اللعب .

حسون : لا ياسيدى هذه لذة نجدها فى كل وقت وأما لقاؤكم

والأنس بكم فلذةُ الدهر وخِلسةُ الأيام . تفضلوا ياسادة .

ابن غصين [لجوهر همسا] : إجتهد ياجوهر أن تلاعبَ هذا الشيخَ وتشغَله حتى يخلو لى وجه حسون .

ابن غصين [الى لؤلؤ] : وأنتَ يالؤلؤ إذا أخذا فى اللعِب فقمْ عند رأسيْهما ولا تدعْهما حتى أهمّ بالانصراف .

جوهر [الى ابن حيون] : أتأذن ياسيدى أن أحلّ محلّ السيد حسون فى ملاعبتِك .

ابن حيون : تفضل ياسيدى خذ مكان حَسون وأرحْنى من قُدرته العجيبة على الظفر بالملاعبين ، ومن حظِّه الذى هو أعجبُ من قدرته .

ابن حيون [الى لؤلؤ] : وأنتَ ياسيدى أتحبُّ أن تكونَ من النظّارة ؟

لؤلؤ : ياحبذا لو أذنتَ ياسيدى .

[يتأبط ابن غصين ذراع حسون و يبتعدان ناحية] .

ابن غصين : أحقٌّ أننا التقْينا ياحسون ؟

حسـون : أجل ! وكنا نظن ألا نلتقى .

ابن غصين : عنايةٌ ولطفٌ وتوفيقُ أقدارٍ لأقدار .

حسـون : وقديما جمـع الله الشـتيتين ، وطوى الأرض للبعيـدين [يجلسان] .

ابن غصين : أتذكر يا حسون قرطبةَ وسوقَ الكتُب ؟

حسـون : أجلُ وأذكر رِسالة الضبى وكيف كنا نتنافسُ فيها ، وكيف غلبتُك عليها .

ابن غصين [مبتسما] : وأين هى الآن يا أخى ؟

حسـون : هى هاهنا يابن غصين بالقربِ منـك وفى متناوَل يدكِ ، إن شئتَ انتقلنا الى المكتبة فأخذتَها .

ابن غصين : لا يا أخى بل دعْها فى موضِعها من خزانتك فانها عنـدك فى الحفظ والصوْن وكأنها عنـدى ، ويكفينى نظرة ألقيها على الرسالة من حينٍ لحين كلما جئتُ دارك زائرة .

حسون [فى دهش] : زائرة ؟

ابن غصين [لنفسه] : ويْحَ لسانى قد عثَر وكشف السرَّ القدر ! .

حسون [مبتسما] : كيف تأنثتَ أخي؟ ما أنتَ الفتى الذكر؟ أما كفاك
هـذا الصوتُ الساحر الرّنّة اللذيذُ النّبْرة حتى جمعتَ اليه
أنوثةَ اللفظ ولينَ الكلام ؟

ابن غصين [فى تلجلج وغضب] : عثرةُ لسانٍ يا شاب فمُرّ عليها مرّ الكرام .

حسـون : وما أثارك يا أخي وليس فيما قلتُ ما يُغضب ؟

ابن غصين : لنطوِ هـذا الحديثَ ولنرجعْ لما كنا فيه ... أما يسرّك
يا حسون أن أخلق لزيارتك العِلل والأسبابَ وأن أجعلَ
رسالة الضبي سلّمًا الى دارِك كلما اشتقتُ اليك ؟

حسـون : كلّ السرور يابن غصين، أنا واحدُ أبي لم أعرِفُ عاطفةَ
الأخـوّة ولم أجدْ لهـا حنانا ولا رقةً ويخيّـلُ إليّ منـذ
عرفتُك أن قلبي يفيض منها وأن وجداني بها مترَع؛ فهل
ترضاني أخا لك شقيقا برّا بك شفيقا ؟

ابن غصين [ويتنهد] : يا مرحبا وإن كنتَ حللتَ من قلبي محل أخي
الظافر من أوّل يوم .

حسـون : ويح أذنى ما أسمع ؟ وما أنتَ من الظـافرِ يابن غصين ؟
وما الظافرُ منك ؟

ابن غصين [ويتلجلج فى الجواب] : عثرةٌ أخرى ، ويحَ لسانى اختلَّ عضبُه واختلط عضَلُه ، إغفر لى هذه أيضا وآنسها يا حسون .

[وكان ابن غصين ينظر الى رباط بذراع
حسون فوثب فى الحـديث وقال :]

ابن غصين : وقى الله ذراعَكَ بيمينه يا أخى ، ما هذا المِنديل؟ ما وراءه؟

حسـون ؟ جُرحٌ اندملَ أكثرُه وبقِىَ أثرُه .

ابن غصين : بَعُدَ عنك الشرُّ يا أخى ؛ من جرحَك ؟

حسـون : هذا واحد من جراح لم يكن يُرجى أن أقومَ منها لو لم تُلْقِ عليها العنايةَ يدَها الآسيةُ الشافيةُ .

ابن غصين : بالله إلا حدّثتنى حديثك . أطَلَعَ عليك اللصوصَ يا أخى فى مكانٍ خالٍ من النـاس فأبليْتَ فيهـم وأبلوْا فيـك ؟ أفاجأتْكَ عِصابةُ البـاز بنِ الأشهب فجرحتَ رِجالهـا وجرحوك ؟

حسون : لا يا سيدى إن القتالَ الذى شهدتُ أعظمُ شأنا وأنبلُ أقرانا مما ذهبتْ اليه ظنونُك .

ابن غصين : وما خبره وأين كان وكيف ؟

حسون : كان ذلك فى قرطبة .

ابن غصين : قبلَ تلاقينا فى سوق الكتب أو بعدَه ؟

حسون : بل بعد ذلك بأسابيعَ وكنتُ نزيلا على بعض خانات المدينة فكان من عجائب القدر أنى اكتشفت مؤامرة تدبر فى الخان لاغتيال الأمير الظافر وإزالة إمارته عن قرطبة وكان شيطان الفتْنة ورأسُ أفعاها هو الأمير حريز بطل الأنداس المشهور فما آطلعتُ على سر المؤامرة وخطط أصحابها حتى ثار ثائرى وغضبتُ لوطنى ولقومى فانسللتُ من الخان ليلا وركبتُ جوادا كان معدّا ليركبَه بوقُ الثورةِ والفتنةِ فعدوتُ حتى أتيتُ قصرَ السوسان فنبهتُ الأميرَ وحاشيتَه وحرسَه ولم أكن الى تلك الساعة رأيتُ

للظـافِر وجها لوجه ولا حضرتُ له مجلسا وتأهبَ الجميع للقتـال وما لَبِثَ الثوّارُ أن طلعوا علينا آتين من نواحى المدينـة يقودهم بطل الأندلس حريز فتلقيناهم بصدورٍ قد رحَبَتْ بالمـوتِ ونفوسٍ قد هشّت اليـه وذكرنا إذ ذاك الوطنَ وحقّـه وأشبيلية ومِنّتها فى الأعناق فحملْنا حمـلةً تحيد عنها الجبال . وكان الظافرُ طيب الله ثراه .

ابن غصين [منزعجا] : حدّثنى يا سيدى عن الظافر؛ قل لى كيف قاتل ؟ وكيف قتله الغادرون ؟

حسـون : تسألنى عن الظافر كيف قاتل ؟ سلْ حريزا عنه فهو ينبئك أنه الأسد .

ابن غصين : وأين كنتَ من الأمير فى ساعة البأس يا سيدى ؟

حسـون : كنتُ حوْله أحمى ظهرَه وينشدّ سيفى سيفَه الى أن ناءتْ به جراحاتُه فسقط عن جواده وكنتُ أنا أيضا قد أُثخِنْتُ بالجروح فسقطتُ الى جنبه حتى اذا أفقتُ من غشيتى

نظرتُ حولى فرأيتُ عند رأس الظافر هذا الصديقَ الذى تراه يلاعب صاحبك الشطرنج الآن .

ابن غصين : وما اسمه يا سيدى ؟

حســون : ابن حيون وهو من رجال العلم والأدب .

ابن غصين : وماذا كان من اهتمامه بالقتيل ؟

حســون : طبَعَ على جبينِه قُبلة وبكاه ورحّم ثم ألقى عليه رداءَه .

[ابن غصين يدخل فى الاغماء]

حســون : ما هــذا ؟ ماذا أرى ؟ ما أصابك يا أخى ؟ ما لعيْنيْــك تغمضان ؟ وما بال رأسِك يميل ؟ ويحى ماذا جنيتُ على الشاب ؟

قد كان عن حديث الظافر لى غِنى رب أصابح أنا أم حالم

[وعند ما يميل ابن غصين فى الاغماءة تقع القلنسوة]

حســون : هذه ضفائر فتاة قد هوتْ عنها القلنسوة فانسدلتْ كجنحِ الليل على جبينٍ كغرّةِ الصباح . أيها الملكَ الكريم لقد عبثتَ

بى إذ كنت تتنكر وتترجل فاعبث اليوم بقلبى ما بدا لك
فقــد دبَّ لك الهوى فيــه، إن شِئتَ فتنكر، و إن شئت
فاظهر فلأكتمنّ حديثَك ولاقدّ سنّ سرّ هواك أن يذاع،
ويلاه إن الإغماءَة قد طالتْ . ابن حيون ... ابن حيون .

ابن حيون : لبيك يا سيدى .

حســون : أنا فى حاجةٍ إليْك تعالَ وحدَك أسرِعْ .

[يحضر ابن حيون]

حســون : ابنَ حيون أنظر ما ذا ترى لقد أُغمِى على ابن غصين
فاذا الظبىُ مهاةٌ واذا البَدْر يابنَ حيونَ شمِس .

ابن حيون [بعد تأمل عميق] : يا لِغرائبِ القدر هذا الوجه عرفته وعشِقته
قبل عشرين عاما من هذه الأيام وقد لقِيتُ بعشقه الدواهى .

حسون [مندهشا] : قبل عشرين عامًا من هذه الأيام! أهازلٌ أنتَ ياعمّ؟

ابن حيون : بل جادّ كل الجــدّ يابن أخى . اسمع حسون هــذه بنتُ
الرميكية . هذه أختُ الظافر . هذه بنت ابنُ عباد .

[ســتار]

الفصل الرّابع

« باحـــدى مقاصـــير قصر الزاهى »
« العبادية والدة الملك ابن عباد مع بثينة »

العبـادية : لقــد علمتُ يا بثينةُ ما كان من زيارتِك لدار التــاجر أبى الحسن وجلوسك ساعة مع ولده حسون، وأنك كنتِ فى زِى الغلامِ وكان معَك لؤلؤ وجوهر .

بثينـــة : ومن خبرِك الخبرَ ياجدّة ؟

العبـادية : عينٌ من الحب وكلتهـا بِك ترعى خُطاكِ وتحرُس حركاتِك وسكناتِك وإن كنتُ عظيمةَ الثقة بنفسِك الأبيّـة العالية وخُلقِك الفاضل الشريف .

بثينـــة : أنتِ إذن يا جدّة كالمنصورِ بنِ أبى عامر لكِ فى كل نادٍ عين، وفى كل سامرٍ أذُن .

العبادية : لا بل أنا عجوزٌ يا بثينـةُ والعجائزُ يتلمسنَ الأخبار ، وأنا أرملُ مِلكٍ وأمُّ ملكٍ يتجسس لى من لم أندبْهُ للتجسسِ ويجيئنى بالأخبـارِ من لم أزوّد . ومهما يكن من الأمرِ يا بثينة فلا تنسىْ أننا ما أرخيْنا لكِ الحبلَ إلا ونحن نعـلم أنكِ الفرسُ النجيبةُ التى إذا أُرخِىَ لهـا الرسنُ لم يخشَ لها جِمَاح ولا شُرود .

بثينـــة : جعلنى الله عنـد ظنكم يا جدّة . وببَّغاؤكِ نادر يا جدّة أنسيتِه ؟

العبـادية : كيف أنساه يا بثينة وقد كان لدىّ كريما وكان سيدَ الطير وكان أخفَّها ظلا وأبيَنَها حكاية ونقْلا .

بثينـــة : أتذكرين يا جدّة كيف أشفقتِ عليـه فلم ترضَىْ أن يُنْزَع من ريشِ جناحيـه كما يَصنع الناس بالطيرِ الكريم فيأمنون طيرانه وفراره ، وإنمـا اكتفيتِ بوضع حَلْقةٍ صغيرة من الذهب فى رجلِه اليمنى تمنعه من النهوضِ وتقيده وإن كان

فى الظاهرِ حرا يتنقلُ فى نواحِى القصر .

العبادية [مندهشة] : وما ذا أخطر ببَّغائى نادر على بالكِ يا بثينــة وماذا تريدين بذكر الحلْقة .

بثينـــة : أريد أن أقولَ لكِ يا جدّة أن حالى كحالِ المرحوم نادر . قيــدتمونى بجوهر ولؤلؤ ومقــلاص وبالعيون والأرصاد ثم زعمتم أنى حرةٌ طليقةٌ أفعلُ ما أشاء .

العبادية [مبتسمة] : ولكن لا أظن حلقــةَ الذهب تُثقل رجْلكِ يا بثينة فانى أرى خدمَ أبيــك الملك لا يقصرون فى صحبتِك عن خدْمةٍ ولا طاعة . على أن كل هذا لا يهمُّنى إنمــا يهمُّنى أن أعلمَ رأيكِ فى الشاب وكيف وجدته . وهــل هو على جانبٍ من الفضلِ والعقل يتميز به عن اللِّدَاتِ ويسمو به على الأتراب ؟

بثينـــة : أما هذا ياجدّة فنعم ، حسون فتى جمَّ العــلم غزيرُ الأدبِ عظيم الحظ من الفنون جميعا الى ما وهب له الله من

الشجاعةِ التى لا يضارعه فيها اليوم إلا أبى الملك و إلا شابٌّ كان زينَ الشباب ، طاح بالأمسِ شهيد الكرامة والواجب .

العبادية : أو أبدًا تذكرين الظافر يا بثينة ، دعيه يا ابنتِي فى أعراسِ نعيمه بين شبابِ الجنة ، خبّرينى هل فى شبانِ أمراءِ الديارِ اليوم من هو الكفء لأميرةِ الأندلسِ وعروسه ؟

بثينة [فى حياء] : هى الكفءَ موجودًا حاضرًا يا جدّة . أهذا وقتُ الفكرِ فى زواجى والاهتمامِ به وأنتِ ترينَ الحوادثَ يجدّ جِدّها والأمورَ تسوء مصايرُها . مسكينٌ أبى الملك أصبح لا يدرى من أين يتلقى البلاء : المغاربة وسلطانهم ابن تاشفين يطلعون من البحر ، والأسبان وعاهلهم ألفونس يزحفون من البر ، والملك بينهما كالصيْدِ المطارَدِ من جانبيه ، إن تلفّت عن يمينه قُتِل ، و إن تلفّتَ عن شماله أُكِل ، والأندلس فى هذه الأثناء كالأسدِ الواقعِ فى الحفرة إن سكن لم ينفعْه ، و إن تحرك لم يرفعْه ، وحدةٌ ممزقة ، وكلمة متفرقة ،

وآمال بالعدوّ معلَّقة .

العبادية : إن بناتِ الملوك إذا بلغْنَ الى مثلِ سِنكِ يابثينة كان الزواج أزكى بسِترهن وأليقَ بجلالهِن ، وأما ما ذكرتِ من إظلام الحقّ وجَهامةِ الحوادثِ ، فتلك حال اختلفتْ علينا بها السنون حتى ألِفناها وقد تصير الى الأردإ الأسوء . وقد يبعثُ الله برياحِ اللطفِ فتعصِمُ السفينةَ من الصخرةِ وتقيها كارثةَ الاصطدام . بثينة ! بنيتي أنا الجدّة ولدتُكِ مرتين إستريحى إلىّ بسرّك وبوحى إلىّ بمكنونه فلن تجدى أرحبَ بسِرك ولا أرحم لكِ من هذا الصدر . خبرينى يا بثينةُ أتعرفين بين أبناء سرَواتِ اشبيلية اليوم فتى يتوسّم فيهِ الخيرُ ويُرجى فى أمرِه الصلاح ، ويقول الناس عنه : فلان كفء لبناتِ الملوك ؟ بثينة . لقد مررتِ باسم حسون مرارا ولم تصِفيهِ لى . فما شكله ... وما أوصافه ؟

بثينة : هو يا جدّةُ شابٌّ فى أواخرِ العقد الثالث من عمرِه ، رشيقُ القامة فى طولٍ ، أسمرُ اللون فاحمُ الشعرِ جعدُه ،

ساحرُ النظْرة، اذا تَبَسم جذبْ، واذا تكلم خلبْ .

العبادية [مبتسمة] : هو إِذن فتى جميلٌ يا بثينة ؟

بثينـــة : جدا وخفيفُ الظل فوقَ ذلك .

العبـادية [بعد إطراق] : ولكن ... ...

[فأجفلت الفتاة ولاحظت الجدّة ذلك] .

العبـادية : لا تغضبي يا بثينة فليس وراء « ولكن » شيء أقوله يحط من شأن حسون وينزِل به عن مرتبـة الفتيان الأمجاد ، بل كل ما هناك أن النـاس يتحدّثون اليوم فى همسهم عن نكبة نزلتْ بالتاجر أبى الحسن فذهبتْ بمعظم مالِه .

بثينـــة : وما يَعيبُه من هذا يا جدّة ؟ أليس أبو الحسن تاجرا ، والتجارة جزرٌ ومدّ، وحِرْمان وجدّ، ونُحس وسعْد، فكم من تاجرٍ بمنزلةِ أبى الحسن قد نُكِب فذهبَ عنـه كلُّ شيء الا الخلُق، ثم لم تمضِ مدّة من الشهورِ أو الأعوام حتى سمِعَ الناسُ وتحدّثوا أن التاجرَ فلانا المنكوبَ تغلبَ بالخلُقِ

على نكبتِه فعاد دولابُ تجارتِه كأمسِ عظيمَ الحـركةِ عميمَ البركة ، ومثلُ أبي الحسن في خُلُقِه وأمانتِه وشرفِ اسمِـه في الأسواقِ لا يبعدُ أن يقومَ من هـذهِ السقْطة و رجلاهُ في عافية .

بثينة [صاغية ثم قائلة] : ... أسمعتِ يا جدّة .

العبـادية : أجل ! سمعتُ تنفُّسا .

بثينـــة : تُرى منِ الطارق ؟

[يدخل عليهما الملك] .

المـــلك : صفْحا يا أمّ وعذرا يابثينة اذا كدرتُ عليكما الخلوةَ وقطعتُ عليكما الحـديثَ فوالله ما دفعني اليـكما الساعةَ إلا همٌّ سارٍ وشاغل جليل .

العبـادية : لا بأس عليك يا بنيّ ، وعافاك الله أيهـا الملكُ ، تفضلْ ، اجلِس .

بثينـــة : خذْ مكانَك بيْننا يا أبتِ واسترحْ الينا من همومِك ، فهاهنا

الرحمةُ قد بسطتْ جناحيْها : هاهنا الأم والبنت .

[الملك يضع جبينه على كتف بثينة باكيا] .

بثينة [باكية] : ... هوّن عليك يا أبتِ وتجملْ أيها الملك فقبلك لم تبْك الآساد ، ولا اشتكتِ الأطواد، ولا ضاقَ البحرُ عن الأعاصيرِ الشداد . تحدّثْ الينا يا أبتِ ولا تيأسْ من روْح الله . وعليك بهذه الجدّة الشفيقةِ والأم البَرَّةِ فائتمنْها على سرك .

الملك : الملك الفونس منذ سقطتْ طُلَيْطُلَةُ وقضاها الله له أصبحَ لا يعرفُ لى منزلةً ولا يألونى تحقيراً وإهانة و يطلب المالَ باستكلابٍ وشرَهٍ والبلادَ باستطالةٍ ولؤمٍ؛ ومن عجيب أمرِه أنه يغضبُ من جهة فيصخبُ و يتهدّد، ويلينُ من أخرى فيلومنى على الاستغاثة بيوسف بن تاشفين واستنجاد جنودِه ، ويدّعى الطاغيةُ أنه أوفى لى منه عهدًا وذمة وأصفى صداقة وموّدة ، وأننى إن حالفت سلطان

المغرب كانت مخالفةَ الذئبِ للحمَل، وأن بربر المغرب اذا دخلوا الأندلس طغَوْا فى البلاد وهدموا بنيـان الحضارَة فيها، ومن نكد الدنيـا أن تَصْدُق فينا نبوءة هـذا الناصح الغَاش فقد طمِع ضيفُنا ابن تاشفين فى ملكنا وسـلطانِنا وتطلعتْ نفسُه الى خيراتنـا وأرزاقنا، واسـتنصرناه على ألفونس فاذا نحن الآن نخشى منـه بطشَ النصِـير، واذا أشـبيلية قد تضمّنت منى ومنـه العجب ، النمر فى قصرٍ هنـاك وراء الضفـة يجتمع به أعدائى وأعداء الأندلس من أبنائه الأندلسيين وصغارِ العقول من الفقهاءِ ومن يلتَفُّ عليهم ، وهؤلاء يحسنون له البقاء فى الأندلس واغتنـام الفرصة لضمه الى سلطنته ، ويقيمون عنـده الحجج على فسادِ ملوكِ الطوائف ويجعـلوننى الهدف الأوَّلَ ، وهنـا فى هذا القصر أسد مقلّم الأظفار مغلوبٌ على العرين وحيدٌ من الأنصارِ والأعوان .

الحاجب : شيخٌ يدعى ابنَ حيون بالباب يا مولاى .

بثينـــة : أدخله يا أبى وبالغ فى إكرامه فقد سلفَ للرجل إحسانٌ إلينا لا ينبغى لنا أن ننساه أبد الدهر .

المـــلك : أدخِله أيهـا الحاجب ... [يخرج الحاجب من الباب] خبرينى يا بثينة ما إحسان ابن حيون إلينا ؟

بثينـــة : لقد حدّثنى من لا أشك فى صدق روايته أن هذا الرجل صلى على أخى الظافر وبكاه وألقى عليه رداءه .

[يدخل ابن حيون فتسدل العبادية و بثينة كلتاهما على وجهها القناع] .

ابن حيون : السلام على الملك ورحمة الله .

المـــلك : وعليكم السلام أيها الولىُّ الشفيق الحميم .

ابن حيون : لو أذِن لى الملك فى خلوة [وقد رأى السيدتين] .

المـــلك : لاتخْشَ شيئا يا ابن حيون ، فهذه العبادية ، أمى وهذه بثينة بنتى ، فحديثُك لن يساق إلا الىّ ، وسرُّك لن يجاوزَ أذُنىّ .

ابن حيون : أيها الملك . نحن اليوم أخوف ما كنا على هذه الأوطان ،

وفى مثـل ما نحن فيـه تجبُ على الأمةِ النصيحةُ للملك ، وقـد انتهى الى أذنىَّ من بعض الفقهـاء والمختلفين الى ضيْفِك هذا يوسفَ بنِ تاشفين أنه أصبح يرى نفسَه أحقَّ بهذا الملك منكَ وقد رأيتُ رأياً فان أذِن الملك رفعتُه اليه .

المـــلك : وماذا رأيتَ يا أديبَ الأندلس ؟

ابن حيون : إعلم أيهـا الملك أن هـذا الضيْف الذى نصرتَه ونصرَك وحالفته وحالفك وقاتلت معـه قتالا يبقى حديث الدهرِ هو أهل لأن يغـدركَ وفى غدرِك ضياعُ الأندلس جميعا ووقوعِه فى قبضته البربرية الغاشمة ، وقديمـا كان هـذا سلوكُه مع غيرِ واحدٍ من أمراء المغرب فنزعَ منهم ملكَهم وسـلطانَهم وشرَّدهَم فى الصحارى والقِفار ، فلا تفوتنَّـك يا مولاى خُطة الحزْم والعزْم فى أمرِ هذا النِّمر ذى العمامةِ والمِسبَحة .

المـــلك : وماذا تنصح لى أن أصنع ؟

ابن حيون : ألا توطئَ الأرْقم سريرَك ، وأن تقطعَ السيفَ قبل أن يقطعَك ، وأن تقبِض من فوْرك على ضيفِك هذا فتَسجنَه ولا تطلِقْه حتى يأمر جنودَه بمغادرةِ الأندلس برِّه وبحرِه ، ثم يحرُس أسطولُك البحرَ من كل سفينةٍ مغربية تجرى فيه ، فاذا تمَّ لك ذلك أخذتَ على ابن تاشفين الأقسامَ ألا يعودَ الى الأندلس بعدها أبدا . وخذْ منه الرهائنَ فان نفسَ الرجلِ أعزُّ عليه من ملكِ الأندلس والمغرب مجتمعين ؛ وله أعداءٌ ببلاده يخشى تحرّكهم وانتقاضَهم ويخافُ أن ينتهزوا الفرصةَ للإستيلاء على مُلكه ...

العبادية : أيها المتكلمُ المحسنُ والناصح الصادقُ لم يخفَ عليَّ مكانُ مشُورتِك ولكنها خُطة أوّلها لؤمٌ وآخرها شؤم ؛ فان الملِك أكرمُ وأعظمُ من أن يغدِر ضيفَه أو يخونَ جارَه أو أن يحفرَ الحفْرَة لمن أقالَ عثْرته .

الملك [لابن حيون وقد رآه يضطرب] : لا تُرَعْ أيها الرجلُ الصادقُ فقد كنا

حين نُبئنا بوصولِك نخوضُ فى هـذا الحديث وكان رأيى كرأيك وأما ابنتى بثينة فلم تكن أبدتْ رأيها بعد .

بثينـــة : مولاى . كِلا الصوتين نبرةُ حق . ونصـيحةُ صِـدق ، إلا أننى أميل إلى الأخذ برأى الأديب ابن حيون .

المـلك : بورك فيك يا عقيلةَ الأندلس . مثُل هذا السموّ فى الرأى وهـذا الحرص على حقيقةِ الملك لا يستغربان من بناتِ الملوك المنشّآت بين أعباءِ الدولة ومهامّ السلطان .

العبادية [معترضة] : ونحنُ بناتِ الشعبِ ألا يقام لِرأينا وزْن يامولاى ،

الملك [مبتسما] : أنتنَّ تلِدْنَ الأجسامَ الصـحيحةَ والقـلوبَ الجريئةَ وتُحسِّن تدبير البيوتِ ولكن لا تَصلُحْنَ لسياسة الممالك .

الملك [لابن حيون] : لو تيقنتُ يا بنَ حيون أن جمهورَ شبانِ الأندلس يشاطرونكَ أنتَ وبثينةَ الرأىَ لمـا تأخرتُ ساعةً عن العملِ بمـا تُشيرانِ به علىّ .

[يدخل مقلاص] .

المـلك : كيف قضيْتَ ليلتك عنـد ضيفِنا أميرِ المسلمينَ يوسفَ ابن تاشفين ؟

مقلاص : كانَتْ ليلتى يا مولاى ونحن، كما تعلم، فى آذار وفى إبانِ القمـر طويلةً مظلمةً باردةً لم أُضْحِك فيها السـلطان مرة ولكن بكيتُ مرارًا ولم أجلبْ له السرورَ ولكن جلبتُ لنفسى الغمّ .

الملك [متعجبا] : ما هذا الخبرُ يا مقلاص ؟

مقلاص : وُجدتُ يا مولاى بحضرةِ أميرِ للمسلمين لا يفهـمُ كلامَ العربِ وعنـد رأسِه تَرجمان من كتابه يفسرله كل ما نقوله معشرَ العـرب فى مجلسـه ويشرح لكلٍ منا ما يشرِّفه به السلطان من الخطاب .

المـلك : ثم ما ذا ؟

مقلاص : رأيتُ هنـاك يا مولاى مـلوكَ الأندلسِ وُقـوفاً ببـاب السلطان متنافسين فى إذنهِ .

الملك [ملتفتا إلى زائره قائلا] : أسمعتَ يابن حيون ... ؟ أعرفْتَ ... ثم ما ذا يا مقلاص ؟

مقلاص : ورأيتُ ثَمَّ فقهاءَ الأندلسِ بعمائمهم المكبَّرة وجُبَبِهم الموسعةِ يتمسحون بالأعتاب .

الملك : أسمعتَ يابنَ حيون ! أعرفتَ ؟

الملك : ثم ما ذا يا مقلاص ؟ قل لنا كيف وجدتَ السلطان .

مقلاص : بُوِّ عليه طيلسان وبُومةٌ فى يدها صولجان .

الملك : وما ذا قال لك حين وقعتْ عينُه عليك ؟

مقلاص : أدخلتُ اليه يا مولاى فحقّقنِي من رأسى لقدَمى ثم قال لى : أأنتَ الرجلُ الذى عمَلُه إضحاكُ الملكِ بنِ عباد وتلْهيتِه أسرتِه ؟

الملك : فما كان جوابك ؟

مقلاص : قلتُ له أجل أيها السلطان أنا نديمُ الملكِ وسميرُه .

الملك : فماذا قال لك ؟

مقلاص : قال لى إذا فأضحكنا نحن أيضا . عجل أضحكنا .

الملك : فماذا صنعتَ ؟

مقلاص : دخلنى خجلٌ شديد و وقفتُ ساعةَ أنظرُ فى ثيابى ولم يفتحِ الله علىّ بشىءٍ يضحكَ منه ضيفُك الكريم . فهممتُ بأن أقبِضَ على السلطانِ بكلتا يدىّ وأقذِفَ به من النافذة .

الملك : وماذا منعك يا مقلاص ؟

مقلاص : سيفُه المعروضُ على حِجرِه والزبانيةُ القائمون عند رأسِه وبجانبيه كأنهم العفاريت ، إلا أن السلطانَ لحظ حرَجَ موقفى فأشارَ باخراجى فخضَ من رجاله من صرَفنى فى وقاحةٍ وإذلالٍ فخرجتُ وأنا لا أدرى فيمَ طلبَنِى الرجل . وأحمد الله على أن لم يجعلنى فى خدمةِ سلطانٍ مثلِه له وجْهَ كوجهِ الأسد لا يعرِفُ التبسمَ ولا البشاشةَ .

[مقلاص يريد أن ينقذ الملك من تأثره] .

مقلاص : لقد وجدتُ ضالتي يا مولاى .

المـلك : وما ضالتك التى وجدتَ؟ وهل عدتَ تهذى يا مقلاص؟

مقلاص : لا يا مولاى ... ألا تذكر أننى كنتُ من الإعجاب بجمالِ الأميرة بثينة وكمالِها وسموّ منزلتِها بين عقائِل الشرق والغرب بحيثُ لا أعتقـد أن بين فِتيانِ الدنيـا من هو أهل لأن يخطبها إليك .

الملك [مبتسما] : والآن هل وجدتَهُ يا مقلاص ... ومن تُرى يكون؟

مقلاص : فتى جرئ جميل رأيته يوم الزُّلاقةِ يحمى ظهرَك هو وحريزُ وابنُ لاطون فظل سحـابةَ نهـارِه معلناً بالسـيفِ دونَك حامياً لحوذتِك حتى لقِى البطلان حريز وابن لاطون حتفَيهِما وحُمِل هو إلى داره مُثخنًا بالجراح .

المـلك : ومن الفتى يا مقلاص ؟

مقلاص : هو يا مولاى أجملُ فتيانِ الأندلس وأشجعُهـم وهو الآن طريحُ الفِراش ما يزال يشكو من جراحِه .

الملك : ومن يكون ... ؟ وما آسمه ؟

مقلاص : هو حسون ابن التاجر أبى الحسن .

ابن حيون : لقد صدقَ فتاك يا مولاى فانى كنتُ عند حسون الليلةَ البارحةَ أعودُه وقد أفاقَ من جراحِه وقصّ علىّ حديثَ بلائِه يوم الزّلاقة حين اشتدّ القتالُ بينك و بين الإفرنج فأخبرنى أنه رأى يومئذٍ جوادَك وقد ضعُفَ وخارَ من شدّة الجراح فقدّم لك الصاعقةَ : أميرَ الجيادِ، فركِبتهُ وكانَ تحت الباذ بن الأشهب لِصّ الأندلس فخرّ عنه قتيلا .

الملك [مندهشا] : أو كان الباذُ بن الأشهبِ بجانبى يقاتِلُ معى أعداءَ البلاد ؟

ابن حيون : نعم يا مولاى، و يقول حسون إنه أبْلى يومئذٍ بلاءً عظيما .

الملك : يا لله . أيكون اللصوصُ أوفىٰ للأندلس من أمرائِه وفقهائِه، وأبذلَ منهم للأرواح دونَ لوائه ... وأين حسون الآن ؟

ابن حيون : هو كما ذكرتُ لمولاى مايزال طريحَ الفِراشِ ولكن لاخطرَ على حياته .

المـــلك : الآن تذهبُ أنت ومقلاص فتنوبان عنى فى عيادته والسؤالِ عن أمرِه وإبلاغِه تحيتى وشكرى وما أُعِدُّ له من جَليـل المكافأة .

بثينـــة : وأنا أيضا أبلغُ حسونا تحيتى وشكرى يا سيدى ابنَ حيون وأرجو أن يعلمَ أن أختَ الظافرِ لم تنْســهُ ساعةً وأنها قد جمعتْ له هذه الأزهارَ بيدِها فاحملْها اليه وقل له لوكنتُ الملك لبعثتُ له بالغارِ فى الأزهار و بالصو لجان مع الريحان .

[وفى هذه الأثناء يدخل جوهر]

جـوهر : مولاى . لقد وَقَع ما كنا نحاذِرُ وحلَّ بأشبيليةَ البلاء .

المعتمـد : البلاء ! تريد أن الصديقَ قد انقلبَ وأن الحليفَ قد عادَ حرْبا . هذا ما خِفتُ أن يكون وقد كان .

[يدخل لؤلؤ]

لـؤلـؤ : أغِثْ أيهـا الملك المدينـةَ أدركْها فقـد خلَّفتُها وجنودُ السلطان يتدفَّعون فيها كالسيل بعد ما اشتدّ ضغْطهم على باب الفرج وأقاموا ساعةً يدفعونه حتى ناءت به الكثرةُ فانفتح فنفذوا منـه الى كل مكان فآخرج يا مولاى فقاتِل حتى تَستنقِذَ الوطنَ أو تموتَ دونَه وإلا فالنجاءَ النجاءَ ! !

الملك [مغضبا] : تدعونى يا شابُّ للفِرار . هيهاتَ هيهاتْ . الأسَـدُ لايهربُ ولا يخـافُ الموتَ . [ملتفتا الى جوهر] خبرنى يا جوهر أين كان فتيانُ أشبيلية وأين همُ الآن .

جـوهر : قَبَعَ الفِتْيانُ فى البيوتِ يا مولاى إلا مائة أو مادونَ المـائةِ شهِدوا معك يوم الزَّلاقة وتعلَّموا منك الكرَّ والإقدام واليومَ قد لبِسوا السلاحَ وخرجوا يلاقونَ الموتَ وهم بانتظارِك ليجعلوك اللواء الذى تسيل نفوسُهم عليه .

الملـــك : يا بشراى مِائةُ شاب وطّنوا النفسَ على الموتِ ؛ أما والله لو صـدقتَ يا جوهر لكان لى من مائة قلبٍ مجتمعـة

مؤتلفةٍ متواصيةٍ بالحق و بالموتِ قوّةٌ أرمى بهـا فى العُبابِ
فيمّحى وأقذفُ بهـا على الجبـال فتزول . البـدارَ البدارَ
ياجوهر إمِض لوقتِك فضعْ بيدِك السرْجَ على الصاعقـةِ
والقَنِى به على الباب .

جوهر [بصوت عال] : أبشرى أشبيلية هـذا الليث قـد تحرّك لنصرةِ العرين .

المـــلك : فى ذمةِ الله وفى حفظِه يابناتِ المعتمد .

بثينـــة : فى دِرعٍ من وقايةِ الله يا أبى فإنى أراك أخذتَ سـيْفَك ونسيتَ درعَك .

[المعتمد وهو منطلق والسيف مسلول فى يده ولا درع عليه]

المـــلك : إن يسابِ القومُ العِـدا مُلْكِى وتُسلِمْنِى الجموع
فالقلبُ بين ضلوعِه لم تُسـلم القلبَ الضلوع
قد رمتُ يوم نزالِهـم الا تحصِّـنَنِى الدروع

وبرزتُ ليْس سوى القميـ ـصِ على الحشا شيءٌ دَفوع
ما سرتُ قط الى القتـا لِ وكان من أملى الرجوع
شـيَمُ الألى أنا منهـمُ والأصلُ تَتْبعهُ الفُروع

[ستار]

الفصل الخامس

المنظر الاول

« فى دار أبى الحسن ، فى غرفة حسون ، حسون »

« راقد على سريره مريضا وأبوه أبو الحسن داخل عليه »

أبو الحسن : قم يا حسون ، إنهض ، إن العناية بلغتْك مُناك ، وشفَتْ بعودِك للحياةِ أباك ،

[ينتفض حسون من رقدته جالسا]

أُوشِكُ يابنى أن أهْتدى لموضعِ بثينة فهل تساعدُنى وهلْ تَخِفُّ معِى لعلنا نجدُ الكنزَ الضائعَ ، ونَظفرُ بالأُمْنِيَّةِ المنشـــودة ،

حسـون : ماذا حدثَ يا أبى ؟ ماذا رأيتَ أو سمِعتَ حتى امتلأتَ تفاؤلا واستبْشارا ؟

أبوالحسن : أتذكر يا بنىّ خاتَمَ الزُّمرُّد الذى كانتْ تطوف علينا به فى سوق الجوهر سيدة كهْلة من وصائِف القصر وهى تبحث عن توأمٍ للفص وتلتمسه فلا تجده ؟

حسـون : نعم يا أبى ! وأذكر أنها كانت تنسُب الخاتَمَ للأميرة بثينةَ وتصِفُ رغبَةَ الأميرةِ فى الحصولِ على فَص يكون فى حجمه وصفاء لوْنه وسلامتِه من العيْبِ ليكونَ لها مِن الجوهرتينِ قِرطٌ عزيزُ المِثال .

أبوالحسن : فاعلم إذن يابنىّ أننى كنتُ منذ حينٍ فى سوقِ الجوْهر فما راعنى إلا رجلٌ قوىٌّ من قوادِ المغارِبة قد جعل يطوف على التجارِ يعرِض عليهم حِلْية فأخذتْها عينى فاذا هى خاتَمَ الأميرة بفصّه . فتريثتُ الى أن كفَّ المساومون وكان آخِر ثمن بُذِل فى الخاتَم ثلاثُ مائة دينار وكان

التجار يقـولون للرجلِ : لوجئتنا بصِنوِ هذا الحجرِ لنقدناك فيهـما الألف أوزدنا . وهنـاك أومأتُ الى الرجلِ أن يتبعنِي فتبعنى . فانتبـذتُ به ناحيـة وقلت له : أنا آخذ الخاتمَ بالثلاثِ مِئة وأزيدُك عليها مِئـة إن أنتَ صدَقْتَنِي الخـبرَ عن مصـدرِهِ وكيف وصلَ اليك ومن أى المعادنِ التقطته ؟ فانبسـط الرجل وتهلل وقال : هـذه الحلْيـة ياسـيدى لجاريةٍ من قصرِ ابنِ عباد وقعتْ لى سبيَّةً يوم هجومِنا على اشبيلية ، فنقلتها إلى دارى فـلم أجدْ عليها غير هـذه الحِلْية وكانت فى يدها فأخذتُها ، وأما الجارية فـلم أجدْها مغْنَمًا بل مغـرَمًا . فانها سقيمة مُستَسْلِمة للأحزانِ طعامُها قليـل ، ونومها غِرار ، ودمعها لا يرقأ حزنا على سادتِهـا . ونحن لا نحب من النساءِ إلا القـويّاتِ الصـحيحاتِ الأبدان . ولا أكتمك ياسيدى أنى بأمرِ الجاريةِ تعِبٌ وبِودّى لو تخلصتُ منها . فقلتُ له : خذِ

الآنَ الأربعِ مِئــةِ دينارا مباركًا لك فيهــا . وآعلمْ أننى طبيبٌ مولَعٌ بالمشاهدَةِ والتجرِيب ، كثيرُ الاعتناءِ بالمريض البائس فلو مضيتَ بى الى بيتِــك لعلّنى أنظرُ الجــاريةَ ، فَأَعرِف علّتَهَــا وأصِفُ لهــا دواءَها أو أخففُ آلامَها . فقمْنا فمضــيْنا حتى انتهيْنا الى دارِه . وهنــاك أدخَلَنِى على الجاريةِ المريضــةِ فدنوتُ منهــا . وقلتُ لها : عوفيتِ يا جارية ولا خوفَ عليكِ إن شاء الله تعالى .

حســون : والنُّونَةُ يا أبت ؟

أبوالحسن : رأيتُهــا ياحسون فوجدتُها فوْق ما كنتَ تصِفُ لى لطْفًا وجَمالا . والتفتُّ الى القائدِ البربرى فقلتُ له : أو تعطِينى هــذه الصبيَّةَ أيضًا وأنا أتِمهــا لك خمسَ مِائة . فتهلل الرجل وارتاح وقال : خذها يا سيدى وأرحْنى منها وداوِها أنت فعساها تصِحُّ على يديك فنقدتُه المِــائة الخامِسةَ وحملت الصبيَّةَ فوقَ ذراعى وخرجتُ بها فركبتُ جوادى وأركبتُها

خلفى وانطلقتُ حتى بلغتُ الدار .

حسون [صائحا] : وأين هى يا أبتِ ؟ أتُراها هى بنُوتَتِها . ربى آجعلْها هى ... وأين تركتَها يا أبى؟ وفى أىّ موْضعٍ من الدارِ؟

[يفتح باب غرفة مجاورة فاذا بثينة من وراء الباب . فيندفع اليها حسون صائحا ...] .

حســون : بثينة ! حبيبتى ! أميرتى .

بثينـــة : حسون ! أخى ! صديقى !

أبو الحسن [قاطعا عليهما لذة اللقاء والحديث] : الآن وقــد جمعتُك يا أَميرةُ بصــديقِك وخادِمك حسون ، أســتاذِنُ فى الخروج الى بعض شأنى ساعةً .

بثينـــة : لا ياعمّ ، بل إبق إلبثْ ؛ إن وجودَك معنا يَزيد الموقِفَ بهْجة وطيباً .

أبوالحسن : إن أذنتِ يا أميرة فان احتجابى عنكما لن يطول .

حســون : بل إبق معنا يا أبى .

أبوالحسن : سأعود يابنى، سأرجع [ويخرج أبو الحسن] .

حسـون [الى بثينة] : ماذا أقول يا أميرتى ؟ وكيفَ القولُ فى هـذه الساعة التى هى العمر ؟

بثينـــة : أنظر حسون كيف جعـل الله هـذا اللقاءَ الذى لم يكن فى الحُسبان عِوضًا لمـا فاتنَا من نعيم الحياةِ ومتاعِها، حتى كدتُ أنسى ذلك الملْك المنزوعَ والسلطانَ الذاهبَ، وأسلو القصورَ وضجّتها، والدولةَ وأعراسها .

حسـون : وأنا أيضا يابثينـة غفرتُ هفـواتِ الدهر لهـذه الساعة المحسنةِ الطيبة وإن لم أخلُ ولن أخلو ما عشتُ من تفجّع للوطَنِ العزيز وتوجّع لرزئه الجليل .

بثينة [متنهدة، مكتئبة بعد انبساط] : آه من الدهر ماذا صنعَ . لطفَ الله بِكِ يا أشبيلية فيما حلَّ عليكِ من قَضائِه، وجعـلَ وطأةَ المغارِبة خفيفةً عليكِ وعلى جاراتِك من حواضر الأندلس .

حسون [مطرقا متنهدا] : دهرٌ ببنيه يابثينةُ قلّب، ودنيا تَرْتَجِلُ العجائب،

وملِك فى السماء يفعلُ بعباده على الأرضِ مايشاء، ولكن ...
بثينــة حبيبتى أميرتى : أحقٌّ أننا التقيْنا فى يقْظَةٍ أم نحنُ
خيالان فى رؤْيا من الأحلام ؟ أتذكرين يا بثينةُ يوْم
السوق ؟ أتذكرين قُرْطبــةَ ؟ أتذكرين رسالَةَ الضــبِّى
للهِ ما كان أحلاكِ يومئذٍ وراءَ اللِّثام .

بثينــة : وأنتَ يا حسون للهِ ما كان أجمَلَك وأكمَلك وكأنَّك يومئذ
ملِك . كنتَ تتنقل فى السوق فتخرُج من مكتبةٍ وتدخلُ
غيرها وتدعُ كتابا وتأخُذ كتاباً والكتبُ حلْية الشباب النابهِ
وجمال الفتُوةِ النابِغَة .

حســون : أتذكرين كلَّ ذلك يا بثينة ؟

بثينــة : أجلْ كلُّ ما كانَ من حركاتِك وسكناتِك يومئذٍ ومن عباراتِك
وإشــاراتِك ما يزالُ مُرتَسِماً فى ذهْنى لم تمحُه الشهورُ ولا
أحسبُ الموْت يمحوه .

حسون [يمد يده الى ذقنها ويقول] : بحياتى نونه كالدرة المكنونهْ .

بثينة [فى شىء من الغضب] : نح يدك يابن أبى الحسن لا تمـدّها الى ما لم تملك بعدُ .

حسون [فى انكسار واستحياء] : أغفريها للحب وللشوق يا أميرة . شُلَّتْ يدى إن كنتُ أضمرتُ سوءا أو همْتُ بريبة .

[يدخل أبو الحسن] .

حســون : أبى ! أبى لم تُبطئْ يا أبى .

أبوالحسن : كنتُ مشغولا يا بنى بتهيئةِ طعامِ الأميرةِ .

بثينـــة : جزاكَ الله خيرا ياعمُّ ومدّ لنا عمرَك .

أبو الحسن [يأخذ مجلسه و يقول] : الحمد لله ياولدىّ على هذا التلاقى الذى هو من توفيق الأقدار، فاليوم جمعكما هذا البيتُ على أثرِ الكارثة وفى أعقاب النكْبةِ كما يجمع الشاطئُ الغريقيْنِ سالميْنِ بالرمق من انكسارِ الفلْكِ ومن ثوْرة الريح وطغْيانِ المـاء، لقد تعارفْتما بالأمسِ فنشأتْ بينكما الألفة وأنِست الروحُ بالروح، وانعطفَ القلْبُ على القلْبِ وقديمًا يا أميرةُ

صاهرتِ الملوكُ الرعيةَ وأبوكِ ، لطف الله به وبنا جميعا فيما حل علينا من قضائِه وقدرِه، أسمحُ من سنَّ هذه السُّنةَ، فرفعَ على عرش اشبيلية امرأةً من رعاياه ، هى الرميكية خيرةُ المِلكات، وأمَّ العقائل من البَنين والبناتِ .

بثينة : أراكَ ياعمُّ قد بالغْتَ فى مؤاساتى حتى أنكرتَ يدَ الدهر وما نالتْ منا، وإلا فأينَ أبى منِّى اليوم؟ وأين مِنْ أبى مُلكهُ ؟ وهل نحنُ اليوم إلا سوقةٌ نَتَنصَّفُ .

أبوالحسن : هوّنى عليك يا أميرةُ إن أباكِ لم يخلعْه قومُه، ولكن خلعَه المُغيرون، فهو فى نفوسنا معشرَ الأشبيليين حاضرُ الجلالَةِ ماثلُ المهابَة مرتسِمُ الكرامَة ؛ يومُه كأمسِه وغدُه كيومِه وإن اختلفَ به اليوم والغدُ وتصرفتْ به الأيام؛ وأنتِ أيتها الأميرة فما زلتِ بنتَ الملكِ المعتمد بن عباد، فهل تَنْزلين الى القبولِ بابنى هذا حسون زوْجا .

حسون : وخادِما أمينا .

بثينـــة : هــذا كثيرٌ فى المجاملةِ والمواساةِ ياعمُّ ، إن حسونًا كفءٌ ويشهدُ الله أنى أحبُّــه وأجِلُّه ، وكأنى بأبى فى غيَابةِ سِجْنِه ينظرُ اليه كما أنظرُه . ويشعُر نحوَه بمثل ما أشعُر . ولكنى ، كما عَلِمْتَ ، مفجوعة : بأبٍ منكوبٍ ، ملكٍ مَعْزولٍ ، أُخِذ فغُــلَّ ، ثم سربل الذلَّ ، وبأمٍ ثكلى وإخوة قتْلَى ، وأخواتٍ أميراتٍ يتعــذبْن من الخلْع ويتكسبن من غَزْلِ أيديهن .

حســون : قــد قُلتِ حقا يا أمــيرةُ وأنا لا أتخيل الجميــعَ هناك إلا مشــغولين بكِ فوقَ منْفاهم . يفتِّشون عن مكانِك بعــيْن حيَّرها الدمعُ ، ويد قصَّرها العجزُ ، وقدمٍ أعجزَها القيْد .

بثينـــة : أذا فأنتَ ترى أنه ليس من الحق ولا من البِر ، أن أُوجَدَ ولا يعلَمون أنى وُجدتُ ، وأن أتزوّجَ ولا يعلمونَ كيف وَبِمن تزوّجْتُ . وماذا يقولون اذا هُمْ عَلِمُوا أنى اتخذت من مأتمهم عُرسا !؟

ابن حيون [يدخل و يقول بعد أن رأى بثينة ، مندهشا] : سيدتى بثينة هنا ؟ الأميرةُ بخيرٍ ؟ ما أعظمَ منّتكَ يارب .

[ويحاول تقبيل يد الأميرة فتمنعها منه] .

بثينة : لا تفعلْ ياعمّ . أهلا بك يا بنَ حيون . وما أعظمَ سروري بِلقائِكَ .

أبوالحسن : أنظر ابن حيون . نعمةَ اللهِ علينا بهذا الكنْز الغالى الثمين .

حسون : أنظر ابنَ حيون كيف ردّ الله علىّ راحتى ورُوحى ، وأعادَ لى الحياةَ والآمال .

ابن حيون : الحمد لله الذى جعَلَكِ فى حفْظِه وفى ذمّتِه ، والذى ردّكِ الينا سالمةً ياسيدتى ، والذى هو قادرٌ على أن يجمعكِ بأهلكِ كأمسِ على جاهِ الأمورِ وفى ظل شاهقةِ القُصور .

بثينة : لقد رأينا ياعم كيف تنتقل الأمور ، وعرفْنا كيف تُبدِّلَ أهلَها القصور ، وأصبحتُ لا أطمع من دهرى إلا بالعيشِ فى ظل الأمنِ والخمول ، و بين قلبٍ يحنو ، ونفسٍ تعطف .

ابن حيون : طيبي إذن ياسيدتى نفْسا ، إن الذى تشتهين قـد اجتمع لك ، فالأمن والسكون لا تعدمينهما فى جناحٍ من هـذه الدار ، أو فى جَنَّةٍ بعيـدةٍ عن النَّـاسِ من جنَّاتِ هـذا الإقليم وإنى أشْهَد أن هـذا الفتى يُحبك وأنك ملءُ قلْبِه وملءُ نفسِـه ، فأقرنى ياسـيدتى حياتَك بحياتِه تَجِـدى حقيقةَ السعادةِ فى ظل الحبِّ المشتركَ الصحيح .

حسـون : كان هذا حديثنا ياعم قبل حضورك ولكنْ لم نكن فرغْنا منه بعدُ . وقـد رأتِ الأميرةُ بِرًّا بوالديْهَا وقضاءً لحقِّهِمَا أن يكون زواجُنا بعيْن أبيها وسمْعِه ، و بقبول أمِّها ورِضاها . وكل زواج رَضِـيه الأبوَانِ وارتاحا اليه سَبقتْ فيه البَركةُ وطافَتْ به الرحمة .

ابن حيون : لقـد رأيتم صوابا . واتفقتم على واجبٍ كان لا بدّ من قضـائه . ولا أظنُّ هـذا المقترَحَ لقى مِنَـكَ اعْتراضا يا أبا الحسن .

أبوالحسن : معـاذَ الله يابنَ حيون ، ولكن ألا تَرَى معى أن حسُّـونا والأميرةَ محتاجان الى الراحةِ واستردادِ العافية .

ابن حيون : أما هذا فنعم ، ولِم لا يقْضى حسونُ والأميرةُ هذا الأسبوعَ فى هذهِ الدار حتى تثوبَ اليهما القوّةُ والعافية .

حسون [مقاطعا] : أتأذنُ لى يا أبى إن رأيت غيرَ رأيك ورأىِ ابنِ حيون ؟

أبوالحسن : تكلمْ يابنىّ فأنتَ حر .

ابن حيون : الكلامُ حر فى الأندلس ياحسونُ فتكلمْ .

حسـون : أرى يا أبى أن نُسافِر من ليلتنا بل من ساعتِنا الى أغماتِ مَنفَى الملك .

أبوالحسن : نُسافِر ؟ نسافِر الساعة ؟ وأنتَ والأميرةُ على هـذه الحال من الضعفِ والسقام ؟

حسـون : أبى إنى ذكرت الوالدين المنكوبين فخيـل إلىّ أنهما على جمرٍ لا يهدأ من اللوعةِ لاحتجابِ الأميرةِ والشك المعذِّب فى مصيرها ، وليس ما ذكرتما أنتَ وابنُ حيون من ضَعْفى

وضعفِ الأميرة وأثرِ السـقْمِ والهمِ فينا إلا حالًا لا يلبثُ الشبابُ أن يتغلَّبَ عليـه ، فالمروءةُ تأمرُنا جميعا ألا نؤخِّرَ الرحيلَ ساعة إذ لا معنى للإسْـعافِ اذا هو لم يعجّل ولم يأتِ فى أوانِه .

ابن حيون : هو ذاك .

أبوالحسن : نعم الرأى .

الأمـيرة : ليَكُنْ كما أشارَ حسون .

حسـون : إذا فهلُمّ أبى ، هـلُمّ ابنُ حيون ، هلُمّى يا أميرة . الساعةَ نسافر فنقضِى الواجبَ .

الأمـيرة : ويقضى اللهُ ما يشاءُ .

[يدخل الغلمان الخدم صائحين]

الغلمـان : سـيدى أبا الحسن ، سيدى حسون ، سيدى ابن حيون خُذوا حِذْركم أدرِكوا الدّارَ .

حسـون : ما يُزعجكمْ أيها الغلمـان . وماذا حوْل الدار . إنى أسمعُ

ضجة . أما تسمعْ يابن حَيون أما تسمعْ ضجةً يا أبى ؟

بثينـــة : حوْل الدارِ ضجة .

خادمٌ من الغلمان : أولئك جنودُ المغاربة يا سيدى .

الثلاثة [بصوتٍ واحد] : جنودُ المغاربة حول الدار ! ؟

الخـادم : أجل أتوْا يسألوننَا عن بنْتِ الملك هل رأيناهَا وهـل آويناها وهم يقولون إنهـا دخلتِ الدار منذُ ساعةٍ وإنهـا طريدةُ الأمير سيرى بن أبى بكر قائد جيش الفتح .

حسون مغضبا : بل قلْ جيش الفضْح يا غلام، فقد باء الغادِرون بفَضيحةِ الأبد .

بثينـــة : الآن فهمتُ يا حســون ، الآن أدركتُ ياعمِّ أن ســيرى ابن أبى بكر كان قد خطبَنى الى أبى، وكان رسُوله يومئذ القاضى ابنَ أدهم، فلا أبى أجابَ، ولا أنا قبِلْت، ولعله تذكرنى اليوم فهو يريد أن يأخذنى عنْوة .

حســون : لا والله يا بنتَ الملك لا تسـقطُ من رأســكِ شعْرةٌ وأنا

حتّى ساعدى معى وسيْفى بيَدى مسلول .

[و بعد إطراق يستأنف و يقول]

حســون : لا بأسَ عليــكِ يا أميرة، ولا علينا يا أبى من طلعةِ البرْبر
ولا من اجتماعِهم بنا فى هذه الحجرة أو غيرها من الدارِ
ولا خوْفَ علينا من فتْشِهم ونبْشِهم .

التـاجر : وكيف يا حسون ؟ وماذا اعتزمتَ أن تصنعَ لتــدفعَ عنا
هذا البلاء ؟

حسون [بعد فكرة قصيرة] : إسمعْ يا أبى ! فى هذه الغرفة صُنْدوق مملوءٌ
من ثيــابِ المغارِبة وأسلحتِهــم فاتبعونى . أُدخلوا من
فورِكم فاخلعوا ثيابَكم هــذه وخُذوا من الصُّندُوقِ ما شئْتم
من ثِيــابِ المغارِبَةِ وتَزيوُّا بِزِىِّ القومِ ثم نخرجُ فنختلِطُ
بهم أو ندعهم وسبيلهم ونأخذ سبِيلا غيْره .

ابن-حيون : هو لاشك سبِيل الفِرار .

حسون [مبتسما] : هو ذاك يابنَ حيون : السرعةَ، السرعةَ [ثم ملتفتا الى

الأميرة] أدخلى يا أميرة، أسرعى، أسرعى، ليضيعَنّ الوقتُ فان الجنودَ فى طلبنا .

[يدخل الأربعة الحجرة ثم يخرجون فى الزى المغربى و يكون الجنود قد دخلوا وهم يقولون]

الجنود [داخل المنزل لبعضهم] : فتشوا، انبشوا .

الأربعة [خارجين قائلين] : فتّشوا، انبشوا [و يكررون ذلك ثم ينسلون من المكان]

المنظر الثانى

« تحت أسوار السجن فى أغمات حيث ترى بثينة وحسون »

« وأبو الحسن وابن حيون على مقـربة من حارس السجن »

ابن حيون : ها نحنُ أولاءِ شارَفْنا أغمات، وهذه أيها الرِّفاق هى القلْعة التى شاءتِ الأقدارُ أن يسجَن فيها الملِك العظيم .

حسـون : يا لِعجائبِ القـدرِ ! قريةٌ ظلّتِ القـرونَ الطوالَ مجهولةً مغمورةً أصبحتِ اليومَ تسافِرُ اليها الظنونُ من كل مكان وتشتَغِلُ ممالكُ العربَ بها و بنزيلِها العظيم وتشرِف الأسماعُ لمطالعِ قوافيه و ينتظر الرواةُ مايقول فيه الشعراءُ من كلماتِ الوجْع ونفَثاتِ الحنين .

بثينة [بعد إطراق واستعبار] : يالقسوةِ القـدَر ! أهـذا قفصُ الأسَـد يابنَ حيون ؟ أههنا منْفى الملائكِ من عقائل بنى عبّـاد؟ تبًّا لك يابنَ تاشـفين . ما كان أبخلَ جاهَك على الكِرام ،

وما كان أكثرَك فى القُيود على الأحرار .

ابن حيون : صهْ أيتها الأميرة فهذا السجّان ينظرُ الينا وقد يُدخِل الريبة فى نفسِه أن يسمعَ منكِ مثلَ هذا الكلام .

حسون : كفْكِفِى الدمعَ يابثينة وأقلِّى الجزعَ ولا تنسىْ أن وراء هذه الجُدران جروحا من الدهْرِ لم يبق لها بلسم سوالِك . فكونى المفاجأةَ الشافِية وآطلِعى عليها بابتسامِك الحُلوْ طلوعَ العافية .

السجان : مَنِ الرجال ؟ ما تبتغون ؟ متى كان حرمُ السجن موضِعَ وقوف وهمْس ؟

حسون : نحنُ أيها السجان طائفة من آل الملِك السجِين وحاشيتِه ، قد هزَّنا الشوقُ إلى زيارَته والسؤالِ عن أمرِه ، فادخلْ فاستأذنْ لنا عليه .

السجان : أنسيتَ أيها الفتى أن هذِه القلعةَ هى من السُّجونِ التى يُعيرها السلطانُ اهتمامَه فلا يدخُلها داخلٌ إلا باذنه ولايخرجُ

منها خارجٌ إلا بإذنِه، فهل بأيديكم جوازٌ يبيح لكم زيارةَ السجين ؟

ابن حيون : أنتَ تعلم يا أخى أن مولانا السلطانَ يعطِف على أسيرِه الكريم .

السجان [متهكما] : كلَّ العطف ياسيدى .

ابن حيون : وأنتَ تعلم أن الملِك المُعتمِـد قد رُخِّص له من أوّلِ يومٍ فى استصحابِ من يشاء من خواصِه وذوى قرباه .

السـجان : أعلمُ هذا أيها السيد .

ابن حيون : فكر إذن فى الأمرِ قليلا . فليس يضرُّك أن تُدخِلنا إلى الملِك وتتْركَنا عنده ساعةً لعلنا نُشفى برؤيته وحديثِه الشوقَ والصبابةَ [ويلتفت للحارس صرة ويقول] ومعَ ذلكَ فاليك هـذه الصرَّة خذْها وبلِّغنا الأرَب .

السجان [وهو يضع الصرة فى كمه] : ما هذا أيها السيد ؟

ابن حيون : هذا، قد لمستَه بيدِك، هذا قد سمِعْت رنينَه بأذُنِك، هذا

يا أخى هو الذهَبَ مفْتاحُ الأبوابِ كلِّها إلا بابَ الجنـة .

الحارس : هذا كثير يا سيدى .

ابن حيون : بل هو قليلٌ يا أخى . ولك مثلُه عنـد خروجِنا من حضرة الملك .

السـجان : لقد سألتمونى أمراً صعبًا أيها السـيد ... ومع ذلك ... فما فى دخولكم من بأْس . تفضّلوا يا سادة أُدخلوا .

المنظر الثالث

« فى سجن أغمات حيث يرى ابن عباد بين أمه وزوجه وسائر أولاده »
« وحاشيته ، وقد شاعت آية البؤس والتعاسة فى وجوه الجميع ، اليوم »
« يوم عيد وقد جلس ابن عباد يتلقى تحية العيد وكلهم صامت خاشع ... »

ابن عباد [مناجيا نفسه] :

فيما مضى كنتَ بالأعيادِ مسرورا
فساءك العيدُ فى "أغمات" مأسورا
ترى بناتُك فى الأطمارِ جائعةً
يَغزِلْنَ للناسِ ، ما يملكنَ قِطميرا
برزْن نحوَك للتسليم خاشعةً
أبصارُهنَّ حسيراتٍ مكاسيرا
يطأْن فى الطين والأقدامُ حافيةً
كأنها لم تطأ مِسْكا وكافورا

من عاشَ بعدَك فى مُلك يُسرُّ به
فانما عاشَ بالأحلام مَغْـــرورا

الرميكية[للملك] : الأميراتُ بين يديْك أيها الملِك أتيْن يهنِّئنَك بالعيد .

المـــلك : يامرْحبًا بهن ، ولا مرْحبا بالعيد ولا أهلا بهِ ...

عيــد ! بأيةِ حالٍ عدتَ يا عيــد ؟ إذهبْ فأنتَ على السجين حرام .

الملك[لنفسه] : لكن لا يابنَ عباد ! بعضَ هذا الجزع ، وتجلدْ رحمةً بهذه الحمائم الموثقةِ ورفْقا بهذه الملائِكة المسجونَة .

الملك [الى بناته] : العيد يا أخواتَ بثينة يوم يجمعُنا باختِكُن .

إحدى الأميرات : والعيدُ أيضا أيهـا الملك يوم يرُد الله عليــك مُلْكك فتدخلَ أشبيليةَ عليك التاجُ مُؤتلِقا .

أميرةأخرى : بل العيــدُ يا أبى يوم تدخل الأندلسَ فتتنقّلُ فى ربوعه ومماِلكه تنقُّلَ الشمس من دارٍ إلى دار .

المـــلك : تقبَّل الله منكنَّ يا عبّاديّات ورحِمَنى .

إحدى الأميرات : هوّنْ عليك يا أبى فلم يدمْ فى النّعيم والبؤْس قوْم .

الملك : لقد هوّن الصبرُ الحوادثَ عندى يابنتاه إلا حادثةً أصبحَ القلبُ جريحا لا يقْوى على حملِها .

الأميرة : وما تلك يا أبتى .

الملك : أختُكِ بثينة واحتجابُها الذى طال . وانقطاعُ الأخبارِ عن مصيرِها .

الرميكية : لا تيأسْ من رحمةِ الله أيها الملكُ وانتظر فرَجا يأتى به من فضْله وكرَمه فهذا قلبى يحدّثُنى ، وقلّما كذبتْ قلوبُ الأمّهات ، أنّ بثينةَ قد وُجدتْ وأنها بخيرٍ وأمان .

الملك [باكيا متضرعا] : اللهمْ اسمع من أمَتِكَ الرميكية وتقبلْ منها وأَدخلْ علينا السرور ولو ساعةً فان عهدَنا به عهدٌ طويل .

[الأميرات يتنصتن] .

الرميكية : ضجة ؟

أميرة : حركة !

أخـرى : نقل أقدام !

المـــلك : أنُظرى يارميكية من الداخلون ؟ فان عيْنى أصبَحَتْ لا تحقّقُ الأشباح .

الرميكيـة : سلَّم اللهُ عيْنَيْكَ يامولاى وأقرّهُما بلِقاء بُثينة .

[وفى هذه الأثناء يثب مقلاص الى الباب و يرجع مع]

[القادمين يقبل ثوب الأميرة بحرارة قائلا ...]

مقـلاص : سيدتى بثينة ! أميرتى ، ياطربا ، يافرحا .

المـــلك : ربِّ ما أرْحمك ماذا أرى ؟ ما ذا أسمعْ ؟ ما هذا الطيبُ الذكىّ ؟ إنى أجِدُ رِيحَ بثينة .

الرميكيـة : بشراكَ ياقلبُ هـذه فَلْذتُك رُدَّت إليك [وملتفتة الى الملك] سيّدى مِلكى أنظرْ كيف استجابَ الله لنا ، هذه بُثينة مقبِلة .

المـــلك : أجل ! أيتها الملكة أقبَلتِ الدنيا وعادَ الزمان .

إحدى الأميرات : بثينة ! أخْتى ! ما أعظمَ إحسانَك ياربِ .

المـــلك : بنيتى . بنيتى . تعالَىْ املئى ذراعىَّ كما كنتِ تختبئينَ فيهما

طِفْلة صغيرة .

[تنطرح بثينة على صدر والدها وتقول] .

بثينـــة : أبى ، سيدى ، ملكى ، لا بأس عليك يا ملكَ العرب .

المـــلك : ولا عليكِ يا ابنتى ، ثقى بالله وأمِّلى وجهَه الكريم .

بثينـــة : الصبرُ منكَ تعلمناهُ يا ملِكَ الصابرين .

المـــلك : والجدّةُ يا بثينة أنسيتِها ؟ أما بِك اليها شوْق؟ أما لها مِنْك قُبْـــلة ؟

بثينة [وتقوم لجدّتها] : جدّتى ، سيدتى ، ملكتى : شهد اللهُ ماخلا القلبُ منك ساعةً وما وُجِدتُ فى مَضيقٍ فذكرتُك إلا انقلبَ فَضاءً ولا أظن الله سبحانه وتعالى أنقذَنى من البلاء وردّنى الى أسرتى وردّ أسرتى الىّ إلا ببركة رِضاكِ أطال الله عمرَك يا جدّة .

[ثم ترتمى بثينة فى أحضان العنادية جدّتها وهى محاطة بأخواتها الأميرات تقبلهن و يقبلنها حتى اطردت اللوعة وأخذها أبواها بينهما وانتظمت من الأسرة الملكية حلقة . وهناك أقبل الملك على ابنته بالحديث فقال] .

الملك : خبريني كيفَ اختُطفتِ يا بثينةُ وما حديثُ اختفائِك ؟
حدّثيني ليطمئنَّ قلبي فقد كان احتجابُك في غليانِ الفتنةِ ،
وعند احتدام الفِتن يُذال المصونُ ويهون العزيز وتقعُ الفُجاءات .

بثينة : ولكن الله سلَّم يا أكرمَ الاباء .

الملك : حدثينا إذن حديثَك يا بثينة .

بثينة : حديثي يا أبتِ عجيبٌ ، محزنٌ ، سارٌّ ، مبكٍ ، مضحكٌ ، حافلٌ بعجائب القدَرِ ومدهشاتِ القضاء .

الأميرات : حدّثينا إياهُ يا أختُ أسرعي .

الرميكية : قُصّي علينا يا بنتاه قِصّتك .

الملك : خبريني الخبَرَ يا بثينة .

بثينة : نظرتُ اليك يا أبي يومَ هجوم المغاربة على أشبيلية فرأيتُك تقاتِلُ وحيدا قليلَ العونِ والمساعدِ وكأنَ أشبيليةَ تحتكَ العرينُ وكأنك الأسَدُ يحمي عرينَه شِبْرا شِبْرا ، فقلتُ

فى نفسى : علامَ تعلَّمتُ الضربَ بالسيفِ وعلامَ كنت أركضُ جِيادَ الخيـلِ فى سهولِ الأندلسِ وحُزونهِ إذا أنا لم أقِض حقَّ وطنى ولم أحمِ ظهـرَ أبى فى هـذا اليـوم العصيب ، ثم جعلتُ على وجهى لِثـاما وتقلدتُ سـيفاً وامتطيتُ جوادا وخرجتُ من القصر فلحقتُ بك ، فلم أزلْ أقاتل بجانبِك وأحامى عنْك حتى امتدّتْ الىّ يد من حديدٍ فاقتلعتْنى من سرجى فأُغمى علىّ ثم انتبهتُ فاذا أنا فى دارِ رجل من قوّاد المغرب .

الملك [مغضبا] : وماذا لقِيتِ من المغربى الخشن ؟

بثينـــة : لم ألقَ إلا خيرا يا أبى فقـد كان الرجل دينًا وتقيّا ، أخذَ ما علىّ من الحُلىّ .

المـــلك : يا له من دينٍ تقىّ .

بثينـــة : ... وتركنى فلبثتُ فى دارِه أياما طريحةَ الفِـراشِ لا أذوق طعاماً ولا أطعِمُ رُقادا ، إلا ما كان من سَـكراتِ الحمّى ،

الى أن سخّرت لى العناية هذا الشيخَ الجليل [وتشير الى أبى الحسن] فلم أدرِ كيف نُقِلتُ الى دارِه وهى لا تقِلُّ رِفْعة عن قديم دُورِنا ولا تقصر بَشاشة نعْمةٍ عن زائل قصورنا .

الملك [فى قلق وغضب ، مشيرا إلى حسون] : وهذا الشابُّ من يكونُ يا بثينة؟

بثينة : هذا حسونُ بنُ هذا الشيخ الجليلِ التاجرِ أبى الحسن ، وله عنْدنا أيادٍ يذكرُها مِثلُك فى الكرام فقد قاتَلَ الثوارَ فى قُرطبة مع أخى الظافر رحمةُ الله عليه ، وأبلى فى وقْعة الزَّلاقة بلاءً كان له خطُره وأثرُه فى ذلك الفتْح المبين .

ابن حيون [متدخلا فى الحديث] : وقد جُرِحَ حسون يومئذٍ جُرحا بليغًا فحملَ الى دارِه فما بلَغها حتى بعثَ اليك أيها الملك بالصاعقة ذلك الجوادُ الأشقر فركبتَه والوطيسُ حامٍ والحربُ مجنونة فكان ميمونَ الناصية ، من صوتهِ نصرتَ ، وفى ركابه غَلَبتَ وظهرتَ .

الملك [مفكرا مهتما] : الصاعقة؟ فرس الباز بن الأشهب لِصُّ الأندلس؟

ابن حيون : أجل أيها الملك ، وقد كان تحتك فى وقعة الدهر بين الفرنجة والمسلمين وكان رابع فرسٍ قُدّم لك يومئذٍ وأنت كلما هَلك تحتكَ فرس ركبتَ غيره .

العبادية : أعرفتَ محدِّثكَ هذا يا مولاى ؟

الملك : كيفَ أجهلُه أو أنساه ، هذا ابنُ حيون الذى زارَنا فى أشبيلية ونصحَ لنا فلم نَسمعْ منه ، فالحمد لله الذى جمعنا به حتى نَستأنفَ شكر إحسانِه .

ابن حيون : أطال الله بقاءك يا مولاى وأعانَك على هذه الشدّة وردّك الى ديارِك وردّ ديارَك اليك .

الملك : وأنتَ ياحسون فقد ذكر لى بلاؤُك ووصفتَ عندى كثيرا بمحاسن الصفاتِ ومكارِم الأخلاق .

حسون : مدّ الله حياتَك يا مولاى وظلّلك برعايتِه وأمانِه .

بثينة : إيذن لى يا أبى أن أعترفَ فى مجلسك بأننى كنتُ فى بعض أيام تنكُّرى أجتمعُ بهذا الشاب النبيل فلا أجدُ إلا أدبًا

حسنا ، وعلْما جمًّا ، وخُلقا فاضلا ، وشمائلَ قد لا توجد فى أبناءِ الملوك .

الملـــك : أتذكرين يا بثينة كيف كنتُ معكَ ضدّ القاضى بنَ أدهم حين جاءنى يخطُبكِ للأمير، سيرى بنِ أبى بكر .

بثينـــة : أذكر ذلك يا أبى ولا أنسى لك فضْلك ما حييتُ .

الملـــك : إعلمى إذن يا بنية أن الأوان قد آن وأن الإسلام لا دير فيه ولا رهبانية ،وأن السجْن قد يحتمِلُه الطفلُ وقد يُطيقه الكهل ولكنه يرهقُ الشبابَ ويزهقه فلن نرضى لك أن تشاطرينا هذا المنزل الخشِن وهذه العيشة الجافيةَ وإن قلْبى ليحدِّثنى بأن ألفةً روحيّة قد انعقدَتْ بينـك وبين هـذا الشاب النبيل .

حسون [متدخلا] : أيأذن لى الملك إن عرضتُ أن قوْله الكريم إنما يُعرِبُ عما أكن لسيدتى الأميرةِ من الحبِّ والإجلال وإنى أجدُ أقصى التّشريف وغايةَ السعادة أن يأذَن لى الملك

فى أن أخطبَ سيدتى بثينةَ اليه .

الملك [ملتفتا الى بثينة] : وأنتِ ماذا تقولين يا بثينة ؟

«الأميرة تغضى حياءا وتسكت»

الملـــك : منَ الصمْتِ كلام .

الملك [الى أبو الحسن] : وأنتَ يا أبا الحسن ماذا تَرى ؟

ابوالحسن : ما يرى الملك أفضلُ . فبما شئتَ فمرْنا يا مولاى ؟

الملك [الى الرميكية] : والمليكةُ ما رأْيها ؟

الملـــكة : قد أمرتَ يامولاى بما فيــه الخيرُ جعله الله زَواجا مَقْروناً بالسعادةِ واليُمْن .

ابن حيون : أيأذنُ الملك لى أنا الآخرُ بالكلام ؟

الملـــك : تكلمْ يابن حيون فقد عرفتُ مودّتك وإخلاصــك، وتبينتُ نُصحَك واهتمامَك، ولولم يكن من احسانِك إلىّ والى أسرتى إلا تجشمُ هــذه الرحلة من أشبيلية الى أغمات لكفى فى باب المروءةِ والوفاء .

ابن حيون : لا شكرَ على واجبٍ يا مولاى . وقد طوّقتنى الساعةَ منّـةً لا يَنتزِعُها من عُنقى الموتُ بما رسمتَ من بناءِ هـذا الفتى الماجدِ الباسلِ بهذه الأميرة التى لم يلدِ الملوكُ أجملَ ولا أكملَ منها : والآن بقى لى ملتمسٌ أرجو أن يُجيبَنى الملكُ اليه .

الملك : اقترحْ يابن حيون تجِد ملبّيًا مجيبا فيما تبلغه قدرةُ ملكٍ مخلوع .

[يخرج ابن حيون جرابا كان قد شدّه على وسطه ثم يفتحه وينثره عند قدمى الملك فتنتثر اللآلىء والياقيت] .

الملكة : جواهر !

الأميرات : لآلئ ! ياقيت !

مقلاص : يالك من كنزٍ ثمينٍ غالٍ .

الملك [وهو ينحنى على الكنز] : ومن أينَ لك يا ابنَ حيون كلُّ هـذا المالِ؟ فمثلُ هـذا الكنزِ لا يكون إلا ذخيرةَ ملكٍ وابنِ مُلوك .

ابن حيون : هو كما تقول يا مولاى ، فهـذا الكنزُ كان لملكٍ ووارثِ

ملوك، فساقَته العناية إلىّ، واليوم قد هلَك أصحابُه وبادُوا فأصبحَ لى وحْدى أتصرَّف به كيف أشاءُ ، وبالأمسِ قوّمتُ هذه الجواهر بما يقربُ من ألف ألف دينار وأنا مقسِّمُ هذا المال ثلاثة أقسام : ثُلُثٌ تأخذه أنتَ يامولاى فتستعينُ بهِ على ما أنتَ فيه من الشدّة، وثلثٌ يأخذه حسون وزوجتُه فيعيشانِ به رغدا، والثلُثُ الثالثُ يكون لى ولأبى الحسن التاجر هذا [مشيرا إلى أبى الحسن] نؤسسُ به تجارةً ونعقدُ بيننا شركة نتحدّى بها تجاراتِ الفرنجة فى الأندلس .

أبو الحسن : ... الله أكبرُ أنتَ واللهِ هو المغربى الذى دخل علىّ دارى وما كنت يومئذٍ إلا متنكرا مُحسِناً للتنكُّر فأسوتَ جرْحى وحفظتَ على دارى واستنقذْتنى من عوادى البؤس والفاقةِ ، والآن تردُّ على تجارتى وتشاطِرُنى كرائم مالِك ، فبأى لسانٍ أؤدّى شكرَ إحسانِك .

ابن حيون : بل أشكرِ الله يا أخى فانى لم أُعِنك بمالى ولكن أعنتُك بمالِه

ولا أجدُنى صنعْتُ يومئذٍ إلا واجبا ولا قضيْتُ إلا ديناً علىّ للصداقَة القديمة وللوّد الصحيح .

الملـــك : لكن ما عساى أصنعُ يابن حيون بهذه الثَّروةِ وأنا كما ترانى صيْد فى قيْد، وأسدٌ فى صفَد، وحىٌّ فى قبْر، ودنيا فى شِبْر إنها لهِبة مشكورَة وان كانتْ والحرمانُ سواء .

ابن حيون : لقد أراحَ الله بالكَ من هـذه الناحيةِ يا مولاى وأذهَبَ عنْك الحزْن ... أما يسرُّك يا مولاى أن تَنْتقلَ من هـذه القلْعةِ المظلمةِ الرطبة الى منزلٍ بظاهِر المدينةِ جديدِ البناءِ حسنِ الأثاثِ تُحيطُ به الأشجارُ من كل جانب ، فتنزِلَه وقد طرحتَ هذه القيود فتستقبل الرَّاحة والحرّيةَ وتتمتعَ بالعُزلةِ التى هامَ بها العقلاءُ فى كل زمان .

الملـــك : ومن لى بهذا الذى تصفُ يابنَ حيون ؟

ابن حيون : بل هو أمرٌ قـد تَمَّ يا مولاى فقدْ فُرِغ من شِرائه وتأثيثِه وتهيئتِه لنزولِك به فى أهلِك وعيالِك ، وأما النُّقْلة فغـدًا

أو بعدَه إن شاءَ الله .

الملـــك : وابنُ تاشفين ... ؟

ابن حيون : هو الذِى أمر أن يكون كلُّ ذلك وقد تذكر كلمتكَ المشهورَةَ التى سارتْ مثلا فى فَمِ الأندلسِ : إذ سئلتُ أىّ المفزعيْن أحبُّ اليك : ملِك الأسبان أم سـلطانِ المغرب فأجبتَ (رعْىُ الجِمال ولا رعْىُ الخنازير) فأمر أن يحمل الَيك فى المنْزِلِ الجديدِ بعيران من نجائبِ إبلِهِ لترعاهما له فى خميـلةِ الدارِ الجـــديدة .

الملك [فى إطراق] : الآن تَذكرتُ . لقد سئلتُ مرة فى مجلس الحكم إن كان لابدّ لى أن أخضعَ لسلطان أو أدينَ لملكٍ بالطاعة فأى الملكيْن أفضّل وأى السلطانين أختار : سلطان المغرب أم ملك الأسبان؟ فأجبتُ : (أرعى الجمال عند أمير المسلمين ولا أرعى الخنازير لملك الأسبان) وأظن أن عبارتى هـذه نُقلتْ يومذاك إلى ابن تاشفين فأعجبْته ووجدَها شريفة .

بثينـــة : ولكن المْكافأةُ كانتْ غيرَ شريفة يا أبى .

المـــلك : تريدين يا بثينة أن تقولى إنّ مروءة السلطان لم تزد على أن جعلَنى راعيًا لجماله بعد ما سلبَ نعْمتى واغتصبَ مُلْكى ونفانى أنا وأسرَتى فى أغمات .

الرميكيـــة : هـــذا جهدُ الرجُلِ فى المروءة يا مولاى وهـــذه غايةُ كَرَمِه فلا تكلفه فوقَ قدْرةِ باعه ولا تسألْه ما ليسَ فى طِباعه .

الملك [لابن حيون] : ولكن قل لى يابنَ حيون من أخذ لنـــا هذا التافهَ القليلَ من ذلك السلطان الشحيح ؟ ومن ذا الذى اجتهد لنـــا وصَنع كلَّ هـــذا حتى غيَّر رأىَ السلطان وصرَفه عن العُنْفِ إلى اللُّطْف ؟

بثينـــةُ : هو لاشك آبنُ حيون يا مولاى .

آبن حيون : ما اجتهدتُ ولا صنعتُ شيئا ولكن المـــالَ صنَع . [ويشير الى الجواهر] .

المـــلك : سنذكر لك هذه الهمَّة الكبرى يابنَ حيون .

بثينـــة : وتلك الهمَّةُ الصغرى أتذكرها للسلطانِ يا مولاى ، فقـــد

تسمَّحَ فنقَلكَ من هذه القَلْعة إلى دار غيرها فى أغمات .

الملك : [ويبتسم ابتسامة تهكم] : أعيشُ فيها حرًّا طليقا بيْن أربعةِ جدران وأرعى لَه فيها الجمال .

بثينة : أنتَ الذى رعيتَ لله فى أشبيليه قوما شيَّدوا حَضارَة الإسلام، وشعْبا عزيزا كريمًا طالما ناضلَ دونَ عرينه وصَبرَ على عَداوةِ الفرنجة وتألُّبِهم عليه القرونَ الطوال .

[ستار]

وكان تمام طبع رواية أميرة الأندلس بمطبعة دار الكتب المصرية فى يوم الثلاثاء ٢ رجب سنة ١٣٥١ (أول نوفمبر سنة ١٩٣٢) ٦

محمد نديم

ملاحظ المطبعة بدار الكتب المصرية

(مطبعة دار الكتب المصرية ٣٣/١٩٣٢/١١٠٠٠)